تشارلز ديكنز

دومبي وولده

(رواية)

ترجمة

صبري كامل

تقديم ومراجعة

محسن جلال

الكتاب: دومبي وولده (رواية)
الكاتب: تشارلز ديكنز
ترجمة: صبري كامل
تقديم ومراجعة: محسن جلال
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

ديكنز ، تشارلز
دومبي وولده (رواية)/ تشارلز ديكنز, ترجمة: صبري كامل، تقديم ومراجعة: محسن جلال – – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٨ – ٢٦٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ١١٠٠٣ / ٢٠٢١

دومي وولده

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

ولد "تشارلز جون ديكنز" في السابع من فبراير ١٨١٢ في مدينة بورت سموث على الساحل الجنوبي لانجلترا، وكان ترتيبه الثاني بين إخوته الثمانية، وكان أبوه موظفاً في خزانة البحرية الإنجليزية، وكانت أحوال الأسرة مضطربة أشد الاضطراب، وذلك لأن أباه كان رجلاً بوهيمي النزعة، غريب الأطوار، عجز عجزاً تاماً عن تدبير أحواله المالية في حدود موارده الفعلية، وقد اتخذ منه تشارلز ديكنز في أن نموذجاً لشخصية مؤثرة في روايته «ديفيد كوبر فيلد» وهو مستر ميكاوبر.

بعد عامين من ولادة تشارلز نقل الأب للعمل في لندن، وكانت لديه مكتبة صغيرة، تضم عددا من الروايات، مما أتاح للطفل الصغير أن يقرأ هذه الكتب ويعيد قراءتها، وقد تأثرت أعماله فيما بعد بهذه الكتب، وفي سنة ١٨٢٢، أخرجه والده من المدرسة ليوفر نفقات تعليمه، وكان والده مدينا وعجز عن سداد ديونه فتعرض إلى السجن في عام ١٨٢٤ فاضطر تشارلز للعمل في مصنع لطلاء القوارب بجانب نهر التايمز. وكان يحصل على ستة شلنات أسبوعيًا لقاء عمله، وبعد سنوات عمل موظفا إداريًا في مكتب محاماة وهو في الخامسة عشر من العمر.

وخلال تلك الفترة نعم تشارلز ديكنز بالحرية، فكان يقضي أمسياته متجولاً في شوارع لندن وأزقتها، لاسيما الشواطئ التي يكثر فيها البحارة.

وكان يتسلل بين الحين والآخر، يجوب الشوارع، وما يحيط بها من أحياء فقيرة، تتخللها الخرائب والحفر، وامتد تجواله فيما بعد إلى حي سوهر المشهور بسكانه من المنبوذين من المجتمع والخارجين على القانون، واشتدت ضائقة الأسرة، وكان تشارلز ديكنز هو الذي يحمل إلى حوانيت المرابين قطع الأثاث بالبيت.

وبعد عام من التحاقه بالمكتب، بدأ ديكنز يمارس عمله ككاتب تقارير مستقل في المحاكم القانونية في لندن. وبعد عدة سنوات أصبح يعمل كمراسل صحفي لصحفيتين كبيرتين في لندن. وعام١٨٣٣، بدأ بتقديم مسرحيات هزلية إلى مختلف المجلات والصحف باسم مستعار هو (بوز). ونُشرت أولى أقاصيصه في كتابه الأول عام ١٨٣٦، اسكتشات بقلم بوز.

وفي تلك الأثناء أغرم بفتاة، كان أبوها مدير بنك، وبعد عامين من الأحلام تحطم قلبه، وهذه الفتاة هي التي صورها في روايته «ديفيد كوبر فيلد» باسم دورا، وقال فيما بعد إن معظم الناس لا يمكن أن يتصوروا مبلغ هيامه الشديد بها، ولم يلتقيا إلا بعد ذلك بسنوات طوال، وقد صار ديكنز من أعلام زمانه، بينما غدت تلك الفتاة زوجة بدينة غبية عاطلة من كل سحر، فاستخدمها نموذجاً في روايته "الصغيرة دوريت".

بعد عام تقريباً من عمله في الصحافة بدأ ديكنز في كتابة سلسلة من الصور القلمية للحياة في لندن، نشرتها له بعض المجلات الأدبية، إلى أن كتب روايته التي دفعت به إلى الأضواء وهي رواية «أوراق مستر بيكويك» ثم أصدر عام ١٨٣٨ روايته «أوليفر تويست» التي حفلت بالظلم الاجتماعي ورصد أحوال الملاجئ في بريطانيا، وفيما بعد سيرحل إلى

أمريكا وكندا للقيام بجولة كبرى لم تسفر عن شيء أو مودة بينه وبين الأمريكيين، الذين كانوا ينشرون كتبه على نطاق واسع، من غير أن يفكروا في أداء شيء من الحقوق المالية إلى المؤلف، وبعد عودته نشر قصة «مارتن تشازلويت» سنة ١٨٤٣، وهي قصة جريمة قتل تفيض بالسخرية والتعقد، وتفصح عما تركته أمريكا في نفسه من آثار سيئة.

ثم ظهرت رواية «ديفيد كوبر فيلد» سنة ١٨٥٠ وبعدها بثلاثة أعوام نشر روايته «البيت الكئيب» ثم «أوقات عصيبة» التي تدور حول مشكلة التفكير الثوري في المجتمع الإنجليزي في عصر نشأة الصناعة الكبرى، واحتدام المشكلات بين نقابات العمال وأصحاب المصانع، إلى أن ظهرت سنة ١٨٥٩ «قصة مدينتين» وهي رواية تاريخية لم تزل من أهم النصوص الأدبية التي تقرر على المدارس الثانوية والعليا وهي ختام مرحلة نضجه.

وكان تشارلز قد تزوّج من كاثرين ديكنز سنة ١٨٣٦ وأنجبت له عشرة أولاد، لكن هذه العلاقة انتهت عام ١٨٥٨ حينما طلب تشارلز الانفصال عن زوجته التي وصفها في إحدى الرسائل بأنها "أم غير كفؤة وتعاني من بعض الاضطرابات العقلية". كذلك تورَّط ديكنز في علاقة غرامية مع الممثلة (ألن ترنان) التي تعرّف عليها سنة ١٨٥٨، وكانت آنذاك في السابعة عشرة من عمرها.

ورغم ما بلغه من ثراء ومجد، فقد ظلّ إنسانا بسيطا متواضعا، ولشدة تواضعه، كانت وصيته قبل وفاته أن يدفن في كاتدرائية روتشستر البسيطة بعيداً عن أنظار العالم، ورغم ذلك دفن في ركن الشعراء في وستمنستر آبي الشهير.

وكان ديكنز قد تعرض في عام ١٨٦٥، لحادث قطار ولم يتعافَ منه أبدًا. وفي التاسع من يونيو عام ١٨٧٠، أُصيب بسكتة دماغية، وتوفي بعدها عن عمر ناهز الثامنة والخمسين، في جادس هيل، بلدته الريفية في إقليم كينت الإنجليزي. قبل أن ينهي آخر أعماله "لغز ادرين درود"، وقد دفن في وستمنستر مع عظماء إنجلترا، وأعلن الحداد الرسمي عليه.

دومبي وولده

وكان تشارلز ديكنز قد اعتاد أن ينشر رواياته في شكل حلقات شهرية في الصحف والدوريات قبل أن يجمعها معا وينشرها في كتاب. وعلى عكس الكثيرين من الأدباء الآخرين الذين كانوا يكتبون رواياتهم بالكامل قبل نشرها مسلسلة، فإن ديكنز كان يؤلف أعماله على أجزاء بالترتيب الذي يُريد أن تظهر عليه حينما تصدر في كتاب.

وقد أدت هذه الممارسة إلى إيجاد إيقاع خاص لقصصه يتميز بتتابع الأحداث المثيرة واحداً بعد الآخر، وهو الأمر الذي كان يثير فضول القراء، وذلك ابتداء من أول أعماله التي نشرها في صحف بين ١٨٣٣ و١٨٣٦.

وبالنسبة لرواية "دومبي وولده" فقد بدأ في نشرها في أجزاء شهرية من ١ أكتوبر ١٨٤٦ إلى ١ أبريل ١٨٤٨ ثم نشرت كاملة في مجلد واحد عام ١٨٤٨. وكان ديكنز قد بدأ في تأليف روايته في مدينة لوزان السويسرية وكان يرسل حلقاتها بالبريد إلى المجلة، قبل أن يعود إلى إنجلترا عبر باريس، وفي لندن استكمل الحلقات الأخيرة، ثم قام بجمع الأجزاء ومراجعتها تمهيدا

لنشرها في كتاب.

وكانت الرواية في طبعتها الأولى قد صدرت بعنوان طويل وغريب بعض الشيء، وهو "المعاملات المالية المتعلقة بشركة دومبي وابنه لتجارة الجملة والتجزئة والتصدير"، لكنه اختصر العنوان في الطبعات التالية ليصبح "دومبي وولده" وهو العنوان الذي عرفت به الرواية واستمر معها إلى اليوم.

وتدور أحداثها حول بول دومبي، مالك شركة الشحن التي تحمل عنوان الكتاب، والذي كان يحلم دائمًا بأن يكون له ابن يكمل عمله من بعده.

تبدأ الرواية بولادة الابن ووفاة زوجة دومبي بعد وقتٍ قصيرٍ من الولادة. وظّف دومبي ممرضة مُرضِعة تدعى السيدة ريتشاردز (تودل) وذلك اتباعًا لنصيحة السيدة لويزا تشيك (أخته). دومبي لديه بالفعل ابنة تدعى فلورنس وتبلغ من العمر ست سنوات، لكنه كان يهملها باستمرارٍ، باعتبارها لم تكن الصبي المنشود الذي كان يرغب به. تذهب السيدة ريتشاردز في أحد الأيام مع فلورنس وخادمتها سوزان نيبر، بزيارةٍ سريةٍ إلى منزل السيدة ريتشاردز في حدائق ستاجز حتى تتمكن من رؤية أطفالها.

وانفصلت فلورنس عنهم خلال الرحلة، واختُطفت لفترةٍ قصيرةٍ من قبل السيدة براون، قبل أن تعيدها إلى الشوارع مرةً أخرى. ثم ذهبت إلى مكتب دومبي وابنه في المدينة وهناك عُثر عليها وأُحضِرت إلى المنزل عن طريق والتر جاي، وهو موظف لدى السيد دومبي، الذي عرّفها أولًا على

عمه، صانع أدوات الملاحة سولومون جيلز.

وسُميّ الطفل بول على اسم والده، وقد كان ضعيفًا ومريضًا، وغير منسجم مع الآخرين بشكل طبيعي؛ فأطلق عليه الكبار لقب «قديم الطراز». إنه مُتعلقٌ بشدة بشقيقته فلورنس، التي أهملها والدها عن عمد باعتبارها غير مهمة بالنسبة له. أُرسِل بول إلى شاطئ البحر في برايتون بهدف الاهتمام بصحته، وهناك أقام هو وأخته مع السيدة بيبشين.

يقرر السيد دومبي أن يُبقي على بول في برايتون نتيجةً لبداية صحته بالتحسن، وهناك تلقى تعليمه في مدرسة السيدة الدكتورة بليمبر، إذ خضع هو والأولاد الآخرون لتعليمٍ مكثفٍ ومُرهقٍ تحت وصاية السيد فيدر الحامل لشهادة البكالوريوس وكورنيليا بليمبر. ومن هنا أصبح بول صديقًا لأحد التلاميذ، وهو السيد توتس الذي يتصف بأنه ودود ولكن ضعيف الأفق.

وتتدهور صحة بول أكثر في هذا «البيت الكبير» وتوفي في النهاية، عندما كان عمره ست سنوات فقط. يدفع دومبي ابنته بعيدًا عنه بعد وفاة ابنه، بينما كانت تحاول دون فائدةٍ أن تكسب حبه. وفي تلك الأثناء، طُرد والتر الشاب من عمله ليشغل منصبا صغيرا في مكتبٍ للمحاسبة في باربادوس، من خلال التلاعب بالمدير السري للسيد دومبي، السيد جيمس كاركير، «صاحب الأسنان البيضاء»، الذي رآه كمنافسٍ محتملٍ له بعد ارتباطه بفلورنس.وأفادت التقارير أن قاربه قد فُقد وأنه غرق.

يغادر عم والتر مكانه بحثًا عن والتر، تاركًا صديقه الكابتن إدوارد

كاتل في موقع المسؤولية عن السفينة الحربية. وفي الوقت نفسه، تُترك فلورنس لوحدها مع عددٍ قليلٍ من أصدقائها للحفاظ على شركتها.

ويذهب دومبي إلى ليمينغتون سبا مع صديقه الجديد الرائد جوزيف بي. باغستوك. ويتعمّد الرائد إقامة علاقة صداقة مع دومبي ليغيظ جارته، الآنسة توكس، التي أصبحت تعامله ببرودة بسبب آمالها في الزواج من السيد دومبي. وهناك تعرَّف دومبي عن طريق الرائد على السيدة سكوتون وابنتها الأرملة، السيدة إديث غرانغر. اعتبر السيد دومبي، الذي كان يبحث عن زوجةٍ جديدةٍ له منذ وفاة ابنه، أن إديث هي امرأة مناسبة بالنّظر إلى مؤهلاتها وارتباطاتها العائلية؛ لقد شُجِّع من قبل الرائد ووالدتها الجريئة، لكن من الواضح أنه لم يكن يشعر بالعاطفة نحوها.

محسن جلال

الفصل الأول

دومبي وولده

جلس " دومبي " في ركن من الغرفة المظلمة في فوتيل كبير بجوار السري. وكان الابن يرقد في لفائفه في فراشه الصغير أمام المدفأة.

كان "دمبي" يبلغ من العمر الثمانية والأربعين سنة، بينما يبلغ الابن حوالي ثماني وأربعين دقيقة.

كان دومبي أصلع نوعًا ما ووجهه أحمر، وكان حسن الطلعة، قوي البنية، ولكنه كان قاسيًا جدًا، ومعتد بنفسه في مظهره.

وقد كان سعيدًا الآن بالحدث الذي انتظره وقتًا طويلًا.

قال مستر دومبي: "إن الشركة التجارية سوف تصبح مرة ثانية، يا مسز دومبي، ليس فقط بالاسم، ولكن في الحقيقة، دومبي وولده، دومبي وولده".

وقد حركت هذه الكلمات مشاعر مستر دومبي كثيرًا لدرجة أنه أضاف كلمة "عزيزتي" إلى اسم مسز دومبي، ولم يكن معتادًا على فعل هذا، ولهذا تكلم في ترد: "مسز دومبي"، يا.. يا عزيزتى" فاحمر وجه السيدة المريضة في دهشة: "سوف نسميه "بول"، يا.. مسز دومبي .. بالطبع".

فأجابت بضعف: "بالطبع". وأقفلت عيناها مرة ثانية.

– "أن هذا اسم والده، يا مسز دومبي، واسم جده! كم أتمنى لو كان

جده على قيد الحياة لليوم".

ثم قال مرة ثانية: "دومبي وولده" تمامًا بنفس الطريقة التي قالها من قبل.

إن هذه الثلاث كلمات تعبر عن فكرة واحدة في حياة مستر دومبي، لقد ارتفع مثل والده من قبل من مركز الابن الى مركز دومبي في اسم الشركة "دومبي وولده".

لقد تزوج منذ عشر سنوات، ولكن حتى هذا اليوم لم يكن لديه أطفال. أطفال ذوي أهمية. فلديه فتاة منذ حوالي ست سنوات، ولقد حضرت الى الحجرة في هدوء، ولكن ما قيمة فتاة بالنسبة الى شركة دومبي وولده؟

لقد كان مستر دومبي راضيًا في هذه اللحظة لدرجة أنه استطاع أن يتحدث في شفقة الى ابنته.

ولهذا قال: "أعتقد يا فلورنس" أنه يمكنك أن تذهبي وتلقى نظرة على أخيك الجميل، ولكن لا تلمسيه".

فنظرت الطفلة بحدة إلى المعطف الأزرق والكرافت الأبيض الصلبة، هذه بالإضافة الى زوج من الأحذية وساعة تدق بصوت عال، هذه كانت فكرتها عن الأب. ولكن سرعان ما رجعت بعينيها إلى وجه أمها، ولم تتحرك أو تجيب.

وفي اللحظة التالية فتحت السيدة عينيها ورأت الفتاة التي جرت نحوها، وتعلقت بها في حب عظيم.

فقال مستر دومبي وهو ينهض متضايقا: "يا إلهي! إني متأكد إن هذا

سلوك غير مناسب سوف أنزل إلى د دكتور ببس". ثم أضاف، وقد توقف لحظة أمام المدفأة: "أني أرجوك أن تبدي عناية خاصة لهذا السيد الصغير، يا "مسز بلوكيت".

فأجابت الممرضة: نعم يا سيدي، في الحقيقة، أنني أتذكر عندما ولدت الأنسة فلورنس.

فقال مستر دومبي وهو ينحني فوق الفراش: "نعم، ولكن هذه مسألة مختلفة، فان هذا السيد الشاب يجب أن يتمم العمل الذي ولد من أجله!"، ثم رفع إحدى يدي الطفل إلى شفتيه وقبلها. ولكنه خاف أن يقتل هذا العمل من كبريائه، فخرج محرجًا.

كان دكتور "باركر ببس" يسير جيئة وذهابًا في غرفة الاستقبال وقد عقد يديه خلفه، ثم قال في صوت عميق ممتلئ: حسنا، يا سيدي، هل وجدت أن زوجتك العزيزة أحسن صحة بعد زيارتك؟"

لم يفكر مستر دومبي، إلا قليلًا في المريضة حتى أنه لم يستطع أن يجيب على هذا السؤال، فقال إنه يسره لو ذهب الدكتور "باركر ببس" إلى الطابق العلوي مرة ثانية.

فقال دكتور "باركر ببس": حسنًا! يجب ألا نخفي عنك، يا سيدي؛ أنه لكي تشفي زوجتك الطيبة، يجب أن تبذل مجهودًا عظيمًا، وإذا لم تستطع أن تبذل "مسز دمبي" هذا المجهود بنجاح، فقد تحدث نكسة.

وكان "مستر دومبي" يعرف أنه أذا ماتت زوجته فسوف يأسف جدًا، وسوف يكون أسفه حقيقًا، ولو أنه لن يكون عميقًا.

وقطع خواطره دخول سيدة في منتصف العمر، وأن كانت ترتدي ملابسها كأنها فتاة صغيرة، فألقت ذراعها حول رقبته وقالت: "عزيزى بول" أنه "دومبي" تمامًا!".

فأجاب أخوها.. فقد كان مستر دومبي أخاها: – حسنًا، أعتقد أنه يشبه العائلة، ولكن ماذا بشأن "فانى" نفسها؟ كيف حال "فانى"؟

فأجابت لويزا: "عزيزى بول"، لا شيء إطلاقًا، هناك ضعف، والمجهود ضروري.. ولكنها سوف تبذله عندما تعرف أن هذا من واجبها".

وتبع هذه الكلمات طرقه خفيفة على الباب. وقال صوت مؤدب جدًا من الخارج: "مسز شيك" كيف حالك الآن يا صديقتي العزيزة؟".

فقالت مسز شيك: "عزيزي بول" إنها "مس توكسى صديقتي الحميمة".

كانت هذه السيدة شخصية طويلة رفيعة وكانت شاحبة لدرجة أن تبدو كما لو كانت كل الألوان قد أزيلت منها. وكان صوتها من أرق الأصوات التي سمعت، وأنفها حادة ومستقيمة.

قالت "مس توكس": "إنني متأكدة أن تقديمي لمستر "دمبي" شرف انتظرته وقتا طويلًا".

واستدعي "مستر دومبي" بسرعة من الغرفة في هذه اللحظة.

وصاحت شقيقته عندما عاد: "لماذا، يا عزيزي بول! إنك تبدو شاحبًا تمامًا! لا شيء حدث؟

– "آني آسف أن أقول، يا لويزة، أنهم أخبروني أن "فانى"..."

فقالت شقيقته وهي تنهض: "الآن، يا عزيزي بول، لا تصدق هذا، تعالي معي إلى الطابق العلوي". وتبعها مستر دومبي، في الحال الى غرفة المريضة.

كانت السيدة ترقد على فراشها، وقد أمسكت ابنتها بإحكام.

همس الدكتور لمستر "دمبي": "كانت قلقة بدون الفتاة الصغيرة".

وساد هدوء خطير حول الفراش. قالت مسز شيك: "فاني، عزيزتي، لقد حضر هنا مستر "دمبي" ليراك، ألا تتحدثين إليه؟

ولم تكن هناك كلمة أو صوت إجابة لهذا. فانحنى الدكتور وهمس في أذن الطفلة، ولأنها لم تفهم معنى الهمس، أدارت الفتاة الصغيرة وجهها الشاحب وعيناها السوداويتين نحوه، ولكنها لم تترك أمها.

وتكرر الهمس، فقالت الطفلة: "ماما!" فاستيقظت الأم برهة ثم ارتجفت الجفون المقفلة، وارتسمت ابتسامة خافتة.

فصاحت الطفلة بصوت عال: "ماما! أوه أمي العزيزة! أمي أمي العزيزة".

وهنا، سحبت الأم وهي ممسكة بالطفلة بين ذراعيها الى البحر المظلم المجهول الذي يدور حول العالم. • فقد ماتت "مسز دمبي" .

الفصل الثاني

بعد الجنازة

وعندما انتهت الجنازة، أمر مستر: "دومبي" بتغطية الأثاث، وتركت الحجرات ماعدا التي يستعملها بنفسه في الطابق الأرضي بدون زينة. وكانت الحجرات التي يشغلها تتكون من غرفة استقبال، ومكتبة، وقد كانت في الحقيقة حجرة إفطار صغيرة.

وكانت هذه الحجرات الثلاثة تفتح أحدها على الأخرى. وفي الصباح عندما يتناول مستر "دمبي" طعام الإفطار، وبالمثل بعاد الظهر عندما يأتي إلى المنزل للغداء، يدق جرس "لبولي ريتشاردس" المربية، ليدعوها الى الحجرة الزجاجية حيث تسير جيئة وذهابا مع بول الصغير.

وفي ذات يوم بينما كانت "بولي ريتشاردس" جالسة في حجرتها الخاصة، فتح الباب ببطء وفي هدوء، ونظرت فتاة صغيرة ذات عيون سوداء. ففكرت "ريتشاردس" قائلة ولم تكن قد رأت الطفلة من قبل: "إنها مس فلورنس" قد حضرت الى المنزل من منزل عمتها بلا شك.

تساءلت الطفلة وهي تشير إلى الطفل الرضيع: "هل هذا أخي؟ فأجابت "ريتشاردس": "نعم، يا جميلتي، تعالى وقبليه".

ولكن الطفلة لم تأت، وإنما نظرت إلى "ريتشاردس" في وقار، ثم قالت: "ماذا فعلت بوالدتي؟"

فقالت "ريتشاردس»: يا له من سؤال محزن! لم أفعل شيئا يا آنسة!

فتساءلت الطفلة: "ماذا هم فعلوا بوالدتي؟". فقالت ريتشاردس "إنك تلبسين يا عزيزتي هذا الرداء الأسود الجميل تذكارًا لوالدتك".

فأجابت "فلورنس". وقد ترقرقت الدموع في عينيها: "إني أستطيع أن أتذكر والدتي في أي رداء".

وكانت الطفلة في حزنها على والدتها وإهمالها رقيقة جدًا وهادئة.. حزن قلب "بولي" عندما تركتها وحيدة مرة ثانية.

حاولت "بولي" أن تفكر في طريقة ما لكي تبقي "فلورنس" الصغيرة معها، ولقد سنحت لها الفرصة في تلك الليلة نفسها.

فعندما استدعاها إلى الغرفة الزجاجية كالمعتاد، وبعد أن سارت في أرجاء الغرفة مدة طويلة والطفل بين ذراعيها، حينئذ أتى مستر "دمبي" فجأة، ووقف أمامها، وقال: "مساء الخير ريتشاردس": كيف حال السيد بول!"

"في صحة جيدة، يا سيدي".

ولكنها ترددت فجأة لدرجة أن مستر "دمبي" الذي ابتعد وقف وانتظر.

فقالت بولي: "أعتقد أن لا شيء يجعل الأطفال مرحين ومبتهجين أحسن من رؤية الأطفال يلعبون قريبًا منهم.

فقال بغضب: "إذا كنت تظنين حقيقة أن هذا النوع من المجتمع حسن

للطفل، فأين مس "فلورنس"؟

فقالت بولي بشغف: "لا شيء أحسن من مس "فلورنس؟ يا سيدي".

عندما حضرت "فلورنس" خائفة؟ توقف مستر "دمبي" عن السير جيئةً وذهابًا، ونظر تجاهها، ولو كان قد نظر إليها باهتمام أكثر وبنظرة أبوية، لفهم سبب ترددها: كانت لديها رغبة قوية في أن تجري وتتعلق به صائحة: "أوه، يا والدي، حاول أن تحبني" ولكنها خافت أن يصدها.. بل لم يفهم شيئًا من هذا.

قال: "ادخلي، ادخلي، مم تخاف الطفلة؟

فدخلت ووقفت بجانب الباب.

فقال والدها ببرود: "تعالي هنا، يا فلورنس، هل تعرفين من أنا؟"

– نعم، بابا.

– "أليس لديك شيئًا تقولينه لي؟" فتوقفت الدموع في عينيها، ومدت يدها المرتعشة وهي تنظر إلى أسفل.

فقال: "كوني فتاة طيبة، اذهبي إلى ريتشاردس، أذهبي!"

وعندما حان الوقت للذهاب إلى الطابق العلوي مرة ثانية، أرادت "بولي" أن ترسل "فلورنس" إلى الغرفة الداخلية لتلقي تحية المساء على والدها، ولكن الطفلة كانت خجلة ولم تريد أن تذهب.

فصاحت. "أوه، لا، لا! لأنه لا يريدني!" واختفت قبل أن تنظر صديقتها المتواضعة حولها.

الفصل الثالث

خسارة بول الثانية

وفي يوم تعميد "بول"، أمر "مستر دومبي" "ريتشاردس" أن تأتي اليه. ثم قال مستر دمبي: "خلال الستة أشهر، أو حوالي يا ريتشاردس، التي أمضيتها معنا، قد أديت واجبك وقد كنت أفكر كيف أؤدي لك خدمة صغيرة، ولهذا سوف أرسل ابنك إلى مدرسة خيرية حيث سيتسلم زي خاص تعليم أيضًا".

فأجابت "ريتشاردس": "أني متأكدة إنني شاكرة لك، يا سيدي". وفي نفس الوقت بدا منظر ابنها "بيلر" مرتديًا زيه الخاص أمام عينيها فاغرورقت بالدموع.

قالت بولي عندما عادت الى حجرة الأطفال: "لست أدري ماذا أعطى لكي أرى الصغير العزيز المسكين قبل أن يعتاد على زيه الخاص". فأجاب "سوزان نبر" وهي التي تعتني "بفلورنس": "لماذا، حينئذ، سأخبرك ماذا تفعلين يا مسز ريتشاردس، هو أن ترينه فيستريح عقلك".

فتساءلت بولي: "ربما لا يحب "مستر دمبي" هذا، اعتقد أنك لا تستطيعين سؤاله؟ "

فأجاب سوزان: "كلا" يا "مسز ريتشاردس»، ولكني و "مس فلوى" سنسر لذهابنا معك غدًا صباحًا".

ولم تقبل "بولي" الفكرة في بادئ الأمر، لأنها كانت ممنوعة من رؤية أطفالها ومنزلها، وأخيرًا بعد مناقشة إنه لن يكون هناك ضررًا كبيرًا الزيارة لمدة دقيقة عند الباب، وافقت على اقتراح "نبر" ولهذا بدا الأربعة ومن بينهم "بول" في الرحيل الى منزل "ريتشاردس" الذي كان في حي فقير جدًا من لندن.

وعندما اكتشفوا أن "بيلر" لم يكن في المنزل، قرروا الذهاب والبحث عنه، وبعد ساعة من المشي، رأته "بولي" وقد تبعه جماعة من الأشرار الصغار الذين كانوا يسخرون من زيه، فسرعان ما أعطت السيد "دمبي إلى سوزان" وهرعت لانقاد ابنها الغير سعيد.."

والمفاجئات مثل المصائب لا تأتي فرادى، فقد أنقذ انتظاري "سوزان نيبر" والصغيرين اللذين في رعايتها من تحت عجلات عربة مارة قبل أن يدركوا ماذا حدث، وفي تلك اللحظة (وكان يوم السوق) ارتفع صراخ تحذير من "ثور هائج" كان هناك ارتباك شديد بين الناس الذين أخذوا يجرون هنا وهناك صائحين، فصرخت "فلورنس" وجرت حتى لم تستطع أن تجري أكثر من ذلك، وعندما وقفت، وجدت أنها أصبحت وحيدة تمامًا فساورها شعور من الخوف.

صاحت "فلور نس": "سوزان! سوزان! أوه، أين هم! أين هم! "

فقالت امرأة عجوز، حضرت تعرج بسرعة بقدر ما تستطيع: "أين هم؟ لماذا جريت بعيدًا عنهم؟: فأجابت فلورنس: "لقد كنت خائفة، لقد ظننت أنهم معي أين هم؟ "

فأخذتها المرأة العجوز من يدها وكانت تعرف باسم "مسز براون" الطيبة، وقالت: "سأدلك عليهم"

كانت امرأة عجوز قبيحة المنظر جدًا تحيط بعينيها هالتين حمراء ومرتدية ملابس رثة.

قالت المرأة العجوز وهي لا تزال ممسكة بها بإحكام: "لا داعي للخوف الآن، تعالي معي".

وانحرفا في شارع ضيق قذر، ثم توقفت المرأة العجوز أمام منزل صغير قديم، ودفعت الطفلة أمامها في حجرة خلفية، حيث توجد كومة كبيرة من الخرق ذات الألوان المختلفة فوق الأرض، ولكن لم يكن هناك أثاث على الإطلاق، وكانت الجدران والسقف لونها أسود تمامًا. فخافت الطفلة لدرجة أنها لم تستطع الكلام، وبدا عليها كما لو كانت على وشك الإغماء.

فقالت مسز بروان الطيبة: "لا تغضبيني، فإذا لم تغضبيني فسوف لا أضرك، ولكن إذا أغضبتني فسوف أقتلك. والان أخبريني من أنت".

فقصت عليها "فلورنس تاريخها الصغير، وأصغت إليها "مسز براون" بانتباه حتى انتهت، ثم قالت: "إذن فاسمك دمبي؟ أريد هذا الفستان الجميل، وهذه القبعة الصغيرة وهذه الملابس الداخلية، هيا! اخلعيها".

وأطاعت "فلورنس" بسرعة بقدر ما تسمح يديها المرتعشة.

قالت "مسز براون، وهي تنظر إلى جسم الطفلة الصغير:

"لا أرى شيء آخر سوى الحذاء، يجب أن آخذ الحذاء يا مس دومبي".

وعندئذ أعطتها المرأة العجوز بعض الملابس القديمة من أسفل كومة الخرق... معطف قديم وقبعة بالية وأمرتها أن ترتديها وحينئذ أخبرت "فلورنس" أنها سوف تأخذها الى طريق عام حيث تستطيع الطفلة أن تسأل عن الطريق إلى أصدقائها وحذرتها ألا تذهب إلى منزلها وإنما إلى مكتب والدها الحي التجاري، وتنتظر على ناصية الطريق حتى تدق الساعة الثالثة. وإذا لم تطع "فلورنس"، هددتها "مسز براون" بأن تنتقم منها.

وما إن دقت الساعة الثالثة، حتى سارت "فلورنس" بسرعة بقدر ما تستطيع السير في حذائها القديم، وكانت كل ما تعرفه عن شركة والدها هو أنها تخص دمبي وولده، وأنها في الحي التجاري.

تعبت من السير، وخافت من الضوضاء، وقلقت على أخيها والمربية، وارتعبت مما حدث لها، فلم تستطع أن تمنع نفسها مرة أو اثنتين من الوقوف والبكاء بمرارة. وبعد مضي ساعتين بعد الظهر رات نوعًا من الموانئ الموجودة على ضفة النهر، حيث يوجد عدد كبير من الطرود والصناديق...

فسألت ابنة دمبي المرتعبة: "من فضلك، هل هذا هو الحي التجاري؟" فأجاب الرجل السمين ويديه في جيوبه: "إنه الحي التجاري، أنت تعرفين ذلك جيدًا، اذهبي بعيدًا! ليس لدينا أي شيء لك".

فأجابت في خوف: "شكرًا لك، لا أريد أي شيء سوى أن أعرف

الطريق الى مكتب دمبي وولده".

فنادى رجلًا آخر قائلًا: "جو أين هذا الشاب الذي من شركة دمبي والذي يراقب شحن البواخر، استدعيه".

ظهر شاب مرح، فجرت "فلورنس" نحوه، وقالت: "لقد ضللت الطريق، لقد ضللت الطريق هذا الصباح وهو يبعد كثيرًا عن هنا، إن اسمي "فلورنس دمبي"، من فضلك يا عزيزي اعتنى بي!".

وانفجرت في البكاء، وفي نفس الوقت سقطت قبعتها القديمة وانساب شعرها فوق وجهها، فتأثر "ولتر جاي" الشاب من الإعجاب لدرجة أنه لم يستطع الكلام.

ثم قال ولتر: "لا تبكي يا مس دمبي، يا له من شيء عجيب بالنسبة لي أن أكون هنا الآن، أنك في أمان الآن، لا تبكي".

وهكذا قاد "ولتر" وقد بدت عليه السعادة، "فلورنس" في الطرقات حتى وصلا إلى باب دكان "صول جيلز" عم "ولتر" وهو دكان أدوات السفن. صاح ولتر وهو يندفع داخل الدكان: "هالو، أيها العم صول! هنا مغامرة عجيبة، هنا ابنة مستر دمبي التي ضلت الطريق، سرقت امرأة ساحرة عجوز ملابسها".

فربت "سلمون جيلز" على رأس "فلورنس" وحثها أن تأكل ورجاها أن تشرب، ومسح بطن قدمها بمنديله بعد أن سخنها على النار، وحينئذ تغلب التعب على "فلورنس" فنامت أمام المدفأة.

وفي هذه الأثناء، ذهب "ولتر" الى منزل مستر دمبي. قال "ولتر" وهو

يهرع إلى مستر دمبي: "أستمحيك عذرا، يا سيدي، ولكني سعيد أن أقول إن كل شيء على ما يرام، يا سيدي، ولقد وجدت مس فلورنس!".

فقال مستر دومبي بحدة لسوزان: "هل تسمعين هذا، يا فتاة خذي ما يلزم واذهبي في الحال مع هذا الشاب لتحضري مس فلورنس إلى المنزل، سوف تكافئ غدًا يا جاي".

قد سبب عودة الطفلة الضالة اضطرابًا قليلًا وليس كثيرًا، فقد رحبت بها فقط "ريتشاردس"، "ريتشاردس" المذنبة وهي تبكي، وانحنت فوق رأسها الصغير كما لو كانت تحبها حقيقة.

فقال مستر دمبي: "هذه المرأة مطرودة، اتركي هذا المنزل يا "ريتشاردس"، لأنك أخذت ابني إلى أماكن لا أستطيع التفكير فيها بدون خوف. أما بالنسبة لما حدث لمس فلورنس هذا الصباح، فإني أعتبر هذا، بطريقة واحدة، كحادث سعيد وحسن حظ فبدونه ما كنت أستطيع أن أعرف أعمالك الشريرة.

واتجهت "بولي" نحو الباب، بينما تعلقت "فلورنس" بملابسها، صارخة بطريقة حزينة ألا تذهب.

وبكى ابن مستر دمبي كثيرًا جدًا في تلك الليلة... لأنه فقد أمه الثانية.

الفصل الرابع

لمحة عن منزل مس توكس وحالة عواطفها

كانت "مس توكس" تعيش في منزل صغير مظلم وجد في الحي الراقي في "الويست اند" من المدينة، وكان يقع في ظل ناصيته مثل قرابة فقيرة لشارع عظيم، تنظر إليه المنازل الضخمة باحتقار وبرود.

وكان هناك منزل آخر خاص مثل منزل مس "توكس" في عدد من المكان، وفيه يعيش رجل أعزب، وهو صاغ ذو مظهر جد ووجه أزرق وكانت "مس توكس" والضباط، يتبادلان الجرائد في بعض الأحيان.

وبالرغم من أن "الضابط باجستوك" قد جاوز منتصف العمر، فقد كان فخورًا في اعتقاده أن مس "توكس" واقعة في غرامه. وكان الضابط على أي حال أناني، ولم تكن لديه فكرة أن كل شخص يتجاهله وأقلهم مس "توكس".

ومع ذلك، فقد بدا أن مس "توكس" قد نسيته، قال الضابط عندما قابل مس تو كس في الطريق ذات يوم: "صباح الخير، يا سيدتي"

فقالت مس توكس ببرود: – "صباح الخير، يا سيدي.

فقال الضابط: "إن جوباجستوك" يا سيدتي، لم يسعد بالانحناء لك وأنت بنافذتك منذ زمن طويل".

فأحنت مس توكس رأسها ولكن في الحقيقة ببرود، وقالت: -–"لقد شغلت جدًا أخيرًا، وإن وقتي مخصص كله تقريبًا لبعض الأصدقاء المقربين، وأخشى أن لا أجد وقتًا أضيعه، حتى الآن – صباح الخير، يا سيدي!"

وعندما اختفت مس "توكس"، وقف الضابط ينظر إليها وقد ازدادت زرقة وجهه عن ذي قبل.

وحدثت أيضًا تغيرات أخرى، فبينما كان يقف الضابط في ظل غرفته الخاصة، استطاع أن يرى أن منزل مس "توكس" وقد بدا أكثر نظامًا وجمالًا عن ذي قبل.

وفضلًا عن ذلك، كانت "مس توكس" ترتدي الآن بعناية غير معتادة ملابس حداد قليلة، وقد ساعد هذا الضابط في حل مشكلته، فقد وصل إلى نتيجة أنها قد ورثت مالًا، ولذلك أصبحت متكبرة.

وفي نفس اليوم التالي بعد ما وصل إلى هذه النتيجة، بينما كان الضابط جالسًا في حجرة الطعام، رأى شيئًا عجيبًا جدًا في غرفة جلوس "مس توكس" الصغيرة لدرجة أنه ظل فترة من الزمن في مقعده غير قادر على الحركة، ثم اندفع إلى الغرفة التالية، وعاد ومعه نظارة معظمة، حملق خلالها بضع دقائق.

ثم قال الضابط: "أنه طفل، يا سيدي!"

لم يستطع الضابط أن ينسى هذا، فلم يفعل سوى أن يصغر ويحملق. يومًا بعد يوم أو مرتين أو ثلاثة أو أربع مرات في الأسبوع كان يظهر الطفل، واستمر الضابط في الصفير والحملقة.

وأن هدف مس توكس من الاعتناء بهذا الطفل ورعايته، وإطعامه واللعب معه كان هدفًا شاذًا. وتقريبًا في نفس الوقت كانت تظهر عاطفة قوية بالنظر إلى الإسورة التي أعطاها لها "مستر دمبي" بمناسبة تعميد "بول"... وعاطفة في النظر إلى القمر ولكن سواء أنظرت إلى.. الشمس، أو القمر، أو النجوم أو الإسورة... فلم تعد تنظر إلى الضابط، ولم يستطع الضابط أن يفهم شيئًا من هذا.

قالت "مسز شيك" ذات يوم: "لقد كسبت تمامًا قلب أخي "بول"، يا عزيزتي".

فشحب وجه مس توكس.

ثم قالت، مسز شيك: "إنه يكبر ويصبح كل يوم أكثر شبهًا ببول». ولم تجب مس توكس سوى أنها تناولت "بول" الصغير بين ذراعيها وقبلته.

وتساءلت مس توكس: "هل هو يشبه أمه، يا عزيزتي؟"

فأجابت مسز شيك: "مطلقًا".

فتنهدت مس توكس بشدة.

فقالت لبول الصغير: "أيها الملاك! أنك صورة من والدك"

لو علم الضابط كم من الآمال والخطط تستقر فوق رأس الصبي لربما حملق.

الفصل الخامس

تقدم بول ونموه وشخصيته

مر بول، من مرحلة الطفولة الرضيعة إلى مرحلة الطفولة، فأصبح "دمبي" متكلمًا، سائرًا ومتعجبًا.

ومع كل العناية والرعاية التي تلقاها لم تستطع أن تجعل من بول الصغير ولدًا قويًا، فكان رقيقًا بالطبيعة، وبما أصابه الضعف من حزنه بعد طرد مربيته.

وهكذا نما بول فبلغ تقريبًا الخامس من العمر، وكان شخصًا صغيرًا جميلًا بالرغم مما يلوح على وجهه الصغير من تعب وحزن قليل وكان طفلًا مرحًا في بعض الأحيان ولكن كانت له طريقة تفكير قديمة وغريبة، ففي أوقات أخرى كان يجلس في مقعده الصغير مفكرًا في عمق، وكان ينهمك في هذه الحالة النفسية وعلى الأخص عندما يجلس مع والده بعد الغذاء بجوار المدفأة.

وفي إحدى هذه المناسبات عندما ظلا صامتين تمامًا لمدة طويلة، قطع بول الصغير هذا السكون هكذا.

– "ما هي النقود، يا والدي؟ "

فأجاب مستر دمبي: – "الذهب والفضة والنحاس والجنيه والشلن ونصف قرش! أنت تعرف ما هي!".

فقال بول: "أوه أجل، أعرف ما هي، أنى لا أعني هذا يا والدي، أعني ما هي النقود؟ أعني ماذا تستطيع أن تفعل؟"

كم بدا على وجهه من السنين عندما أدار وجهه إلى أعلى نحو والده فقال مستر دمبي: "ستعرف ذلك أحسن في المستقبل، يا رجل. إن النقود تفعل أي شيء، يا بول".

– أي شيء، يا والدي؟

فقال مستر دمبي: "نعم، أي شيء.. تقريبًا، فتساءل الطفل: لماذا إذن لم تنقذ حياة أمي، إنها ليست قاسية، أليست كذلك؟

فقال مستر دمبي: "قاسية؟ كلا، أن الشيء الحسن لا يكون قاسيًا.

فقال الطفل الصغير بعد تفكير: إذا كانت شيئًا حسنًا، وتستطيع أن تفعل أي شيء، فإني أعجب لماذا لم تنقذ أمي.

وكرر الفكرة بصوت عال كما لو كانت فكرة قديمة بالنسبة له، وقد ضايقته كثيرًا جدًا.

وعندما أفاق "مستر دمبي" من دهشته وانزعاجه (فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها الطفل إليه عن أمه)، فشرح له أنه بالرغم من أن النقود قوة قوية جدًا، فإنها لا تستطيع أن تحفظ الناس على قيد الحياة.

– "إنها لا تستطيع أن تجعلني قويًا وفي صحة جيدة أيضًا يا والدي، هل تستطيع؟"

فأجاب مستر دمبي: "لماذا، أنك قوي وفي صحة جيدة، أليس

كذلك؟"

فأجاب الطفل: – "إن "فلورنس" أكبر مني سنًا، ولكني أعرف أني لست قويًا وفي صحة جيدة مثل "فلورنس"، ففي بعض الأحيان أكون متعبًا جدًا، وتؤلمني عظامي أيضًا.

فقال مستر دمبي وهو يضع يده برقة على ظهره: "آه! ولكن هذا في الليل، أن الناس الصغار يجب أن يتعبوا بالليل، ولهذا ينامون جيدًا. "

"أوه، أن هذا ليس بالليل، يا والدي، أنه بالنهار فأرقد في حجر فلورنس وتغني لي، وفي الليل أحلم أشياء غريبة!"

ودهش مستر دمبي ولم يرتاح لدرجة أنه لم يستطع إلا الجلوس والنظر الى ابنه على ضوء المدفأة.

وعندما ظهرت المربية لتأخذه الى الفراش، قال بول: "أريد فلورنس أن تأتي معي".

وظهرت "فلورنس" وفي الحال قفز الطفل في استعداد ونشاط مفاجئ.

وبعد أن غادروا الغرفة معًا، ظن "مستر دمبي" أنه سمع صوت رقيق يغني فتذكر أن "بول" قد قال إن أخته تغني له، فتملكه حس الاستطلاع في أن يفتح الباب ويصغي ويراقبهم.

كانت تصعد ببطء السلالم الكبيرة الخالية وهو بين ذراعيها.

الفصل السادس

صول جيلز في مأزق

كانت لدي "ولتر جاي" عاطفة قوية للمكان الذي قابل فيه "فلورنس" وللشوارِع التي سارا فيها للمنزل، ربما قد أصبح أكثر أناقة في ملبسة بعد تلك المناسبة التي لا تنسى، وبالتأكيد كان يحب في أوقات فراغه أن يمشي تجاه الحي الذي يقع فيه منزل" مستر دمبي "في فرص مرور "فلورنس" الصغيرة في الشارع.

وهكذا حدث ربما لحوالي ست مرات خلال السنة، أن رفع" ولتر "قبعته "لفلورنس" في الشارع، فتوقفت "فلورنس" لتسلم عليه.

هذه كانت حالة "ولتر" في الوقت الذي كان "بول" في مدرسة "مسز ببشن"

– "ما هذا، يا عمي؟ زبائن؟"

فأجاب سلمون بتنهيدة: "نعم".

–:"لا تحزن، يا عمي. فعندما تأتي أوامر الشراء ستكون كثيرة لدرجة أنك لن تستطيع الانتهاء منها".

فقال سلمون جيلز: – "سيكون هذا متأخرًا جدًا، يا ولدي، لن يأتوا أبدًا إلى هذا الدكان مرة ثانية قبل أن أخرج منه".

فقال ولتر: "لا يجب أن تقول هذا، يا عمي"

فحاول "صول" العجوز أن يبدو مرحًا، وابتسم له بطريقة سارة بقدر استطاعته.

وعندما رجع "ولتر" من شركة "دمبي وولده"، دهش لوجود "مستر بروجلي" المحضر؛ جالسًا في غرفة الاستقبال الخلفية.

فتساءل ولتر: "هل حدث أي شيء؟"

"فقال "مستر بروجلي": الحقيقة أن هناك دفعة صغيرة في دين متأخرة، وقد حجزت على الدكان"

فقال عمه: – "لم تحدث إلى أن من قبل مثل هذه المصيبة "وولى يا ولدي"

وغطى وجهه بيديه وبكي بصوت عال.

فقال ولتر: – "لا تبكي، يا عمي صول! ماذا سوف أعمل يا "مستر بروجلي؟"

فقال مستر بروجلي: – "اذهب إلى صديق وناقش معه الأمر"

فقال ولتر وهو يجري خارجًا من الدكان بأسرع ما يستطيع: – "انتظر حتى أذهب إلى الكابتن كتل"

وعندما وصل ولتر إلى مسكن الكابتن، قرع الباب، بينما كان الكابتن ينظر من إحدى النوافذ الصغيرة الأمامية، وكان للكابتن ند كتل "خطافًا مثبتًا في رسنه بدلًا من اليد، وله حواجب سوداء كثيفة، ويحمل عادة عصا

ثقيلة في يده اليسرى، لقد كان مرشد أو قبطان سفينة.

سأل الكابتن: -"كيف حال جيلز؟"

وعندما أخبره "ولتر" بالمسألة؛ أفرغ الكابتن "كتل" علبة صفيح صغيرة بها النقود التي يمتلكها (وكانت ثلاثة عشر جنيهًا وشلنين وست بنسات) ووضعها في إحدى جيوب معطفه الأزرق ووضع أيضًا معلقتين شاي قديمتين، وساعة فضية كبيرة، وزوج قديم. جدًا من ملاقيط السكر. وأعاد تثبيت الخطاف إلى رسغه اليمني؛ وأخذ عصاه وطلب من "ولتر" أن يأتي معه.

وعندما وصلا إلى باب دكان صول، القديم، أسرع الكابتن إلى غرفة الاستقبال الخلفية.

وقال الكابتن: "جيلز! سنحارب هذا، من الدائن؟"

فقال الرجل العجوز: - "هش! لا تتكلم أمام "وولي" إن المسالة ضمانة لوالد "وولي"، لقد دفعت مقدار كبيرًا منها "ياند" ولكن الأحوال سيئة معي، ولا أستطيع أن أدفع الآن، ومن الأحسن أن تباع البضاعة، إنها تساوي أكثر من هذا الدين، ومن الأفضل أن أذهب وأموت في مكان ما مع باقي النقود.

سار "كابتن كتل" جيئة وذهابًا في الدكان فترة من الزمن في تفكير عميق.

ثم قال الكابتن أخيرًا: "لقد وصلت إلى حل يا "ولتر" إن رئيسك هو الرجل الذي سوف يقرضنا النقود".

فقال ولت مترددًا: "مستر دمبي!"

فقال الكابتن: – "أسرع إلى المكتب أولًا وقبل كل شيء، وانظر إذا كان هناك"

وسرعان مارجع "ولتر"، ليقول إن "مستر دمبى" ليس هناك،

فقد كان اليوم السبت وقد ذهب الى "بريتون".

فاستأذن الكابتن مسرعًا من "صول جيلز" وذهب مع "ولتر إلى "بريتون".

الفصل السابع

بول يتعلم قيمة النقود

بعد أن نظر "الضابط باجستوك" لمدة طويلة وفي أغلب الأحيان إلى "بول" خلال نظارته المعظمة، وبعد أن تلقي تقارير يومية وأسبوعية وشهرية في هذا الموضوع من خادمه، الذي يعرف خادمه "مس توكس"، قرر أن يتعرف بدمبي.

وعندما أبلغه الخادم أن "مس توكس" وقد ذهبت إلى "بريتون" وأن" بول "في مدرسة "مسز ببشن" رأى الضابط الفرصة التي انتظرها.

فذهب إلى" بريتون" وهناك قابل "بول" و"فلورنس" في صحبة رجل مهيب المنظر، فتوقف الضابط ليراقبهم معجبًا بهم.

قال الضابط مخاطبًا مستر دمبي: "إن صديقي الصغير هنا، يا سيدي؛ يجعلني أشعر بأني صغير مرة ثانية؛ إني جندي قديم؛ يا سيدي.. "الصاغ باجستوك" في خدمتك.. ولست أخجل في أن اعترف بذلك.. اعتقد أن لي شرف الحديث لمستر دمبي؟".

أجاب مستر دمبي: -"أني في الوقت الحاضر المندوب غير المستحق الذي يحمل هذا الاسم، يا حضرة الضابط".

فقال الضابط: يا إلهي يا سيدي، إنه اسم عظيم، والله إنه اسم عظيم!"

فقال مستر دمبي:" إنك طيب يا حضرة الضابط لدرجة أنك تقدره بأكثر مما يستحقه".

فتساءل الضابط: "هل ستمكث هنا، يا مستر دمبي؟"

فأجاب السيد: – "إني عادة أحضر إلى هنا مرة في الأسبوع يا حضرة الضابط، وأمكث في "لوكاندة بدفورد".

فقال الضابط: "سيكون لي الشرف بزيارتك في "لوكاندة بدفورد" يا سيدي إذا سمحت لي".

وزار الضابط بعد ذلك" مستر دمبي" وزار "مستر دمبي"؛ الضابط بعد ما قرأ كشف الجيش. ثم زار الضابط منزل مستر دمبي في المدينة، ورجع في نفس العربة مثل "مستر دمبي" وبالاختصار تفاهم "مستر دمبى" والضابط معًا بطريقة حسنه غير معتادة، وبسرعة غير معتادة.

وعندما أحضر "مستر دمبي" "مس توكس" و "مسز شيك" لرؤية الأطفال، ووجد الضابط مرة ثانية في "بريتون" دعاه إلى تناول الغداء في "بدفورد"، ومدح "مس توكس" "كثيرًا على جارها وصديقها.

ولكن أثناء الطريق إلى لو كاندته، كان الضابط يقول لنفسه باستمرار: "هل تكونين، يا سيدتي، هل ستكونين؟ مسز دمبى، إيه، يا سيدتي؟ لا أظن؛ يا سيدتي" لن يحدث هذا بينما يستطيع "جو باجستوك" أن يمنعك، يا سيدتي"

وفي يوم بعد هذه المناسبة (التي كانت يوم الأحد) عندما هرعت فلورنس إلى الداخل بينما كان" مستر دمبي" و "مسز شيك" و "مس

توكس" جالسين لتناول طعام الإفطار، وكان وجهها متوردًا وعيناها تلمعان من الفرح، وصاحت: "بابا! بابا! هنا "ولتر" إنه لا يريد الدخول".

فصاح "مستر دمبي": من؟ ماذا تعني؟ ما هذا!

فقالت "فلورنس" في خجل الآن: "إنه ولتر، يا أبي! لقد وجدني عندما ضللت الطريق".

فتساءل مستر دمبي وهو يعبس: -"هل تعني" جاي" الشاب يا "لويزا" حقًا " أن سلوك هذه الطفلة قد أصبح مبعثًا للضجة الشديدة وأسرعت "مسز شيك" إلى الممر، ثم عادت لتقول إنه "جاى" الشاب مصحوبًا بشخص غريب المنظر جدًا.

فقال مستر دمبى: -"أخبروا الصبي أن يأتي". والآن يا "جاي" ماذا حدث؟ من أرسلك هنا؟ ألم يكن هناك شخص آخر- يستطيع الحضور؟"

فأجاب "ولتر": "أستمحيك عذرًا، يا سيدي، لم يرسلني أحد، لقد كنت من الجرأة بحيث حضرت لغرض خاص بى، آمل أن تعذرني عندما أذكر السبب".

ولكن "مستر دمبي" بدون أدنى اهتمام إلى ما قاله، كان ينظر بعدم صبر حوله إلى شيء ما خلفه.

فقال "مستر دمبي": – ما هذا؟ أظن إنك ارتكبت بعض الأخطاء، يا سيدي. فتقدم الكابتن قليلًا الى الداخل، وانحني لمستر دمبي، بينما لوح بخطافه في أدب للسيدات. فنظر "مستر دمبي" إلى هذا المخلوق الغريبة بالدهشة والغضب، وابتدأ "ولتر" يقول وهو يرتعش وينظر إلى الأرض: –

"أخشى ياسيدى، إنني ما كنت أجد الشجاعة لطلب مقابلتك، حتى بعد عودتك، لو لم أرى "مس دمبي...".

فقال "مستر دمبي" وهو يتبع عينا ولتر عندما نظر سريًا إلى فلورنس المصغية، وعبس بدون أراده عندما شجعت "ولتر" بابتسامة. حسناً؟ استمر من فضلك".

فقال ولتر: – "إن عمى المسكين في مأزق شديد وبسبب الخسارة التدريجية في تجارته، ولأنه لم يستطع الدفع، فهناك حجز على منزله، وهو في خطر أن يفقد كل ما يملك، ويقاسي من شدة الأسف فإذا استطعت أن تفعل أي شيء لتساعده من هذه الشدة يا سيدى، بما لك من شفقة وبمعرفتك به كرجل محترم، فإننا لن نستطيع أن نوفيك حقك من الشكر".

وامتلأت عين "ولتر" بالدموع وهو يتحدث.

ثم استطرد قائلًا: "إنه مبلغ كبير جدًا، ياسيدى، أكثر من ثلثمائة جنيه، ولكن هناك بضائع عمي، وأيضاً "كابتن كتل" الذي يود أن يكون ضامنًا، ولا أود أن أذكر ما امتلكه، ولكن إذا أخذتها كلها في سبيل النقود التي ستسلفها لعمى..."

ووقف ورأسه منحنية إلى أسفل أمام مخدومه.

وحينئذ تقدم "كابتن كتل" إلى المائدة وأوجد مكانًا بين أواني طعام الإفطار عند مرفق "مستر دمبي" وأخرج الساعة الفضية والنقود وملاعق الشاي وملاقط السكر.

فقال مستر دمبى: –"تعالى إلى هنا" "يا بول" فأطاع الطفل ووضعه

"مستر دمبي" على ركبته، وقال: إذا كان لديك نقودًا الآن، نقودًا كثيرة التي تحدث عنها "جاي" فماذا سوف تفعل؟"

فقال بول: – "اعطيها لعمه"

فقال "مستر دمبى": – هل تسلفها لعمه؟ حسنًا! عندما تكبر سوف تشاركني في مالي، وسوف نستعمله معًا.."

فقال بول وكان قد تعلم هذه الجملة مبكرًا في حياته: – "دمبي وولده" فكرر والده: –"دمبى وولده، هل تحب أن تبدأ في شركة دمبي وولده الآن، وتسلف هذه النقود لعم جاى الشاب؟.

فقال بول: "أوه! إذا سرك هذا يا والدي! وتود "فلورنس" أيضًا".

فقال مستر دمبى: –"إن البنات لا شأن لها بشركة دمبى وولده هل ترغب في ذلك؟"

– "نعم، يا والدي، نعم!"

فقال والده: "حينئذ سوف تفعل ذلك"

وعندئذ استدار مستر دمبي إلى المائدة وكتب مذكرة وقفلها، ثم قال لولتر: – "اعطي هذه إلى "مستر كاركر" وسيعمل على أن تدفع النقود، واعتبر أن هذا ما فعله لك سوي "مستر بول" لا أرغب في أن يقال أي شيء أكثر".

ثم أشار إلى الباب فلم يسع "ولتر" إلا انحناء رأسه والرحيل.

وعندما رأى ممتلكات الكابتن على المائدة قال مستر دمبى: – لتكن

من الطيبة وتأخذ هذه الأشياء، ياسيدى فلم يكن أمام الكابتن سوى أن يطيع.

وحينئذ قبل "كابتن كتل" خطافه للسيدات مرات عديدة وصحب ولتر الى خارج الغرفة. وعندما جرت فلورنس خلفها لترسل رسالة إلى "صول" العجوز، ناداها "مستر دمبي" وأمرها أن تبقي حيث هي.

فقالت مسز شيك: -"ألن تكوني أبدًا من عائلة دمبى، يا طفلتي العزيزة!"

فقالت فلورنس: - "لا تغضبي مني، يا عمتي العزيزة، إنني شاكرة جدًا لوالدي".

الفصل الثامن

دكتور "بلمبر"

اعتنت "مسز ببشن" "ببول" الصغير وأخته مدة اثني عشر شهراً تقريباً، وشيئاً فشئياً أصبح "بول" أكثر قوة ولكن كان لايزال يبدو نحيفًا ورقيقًا، وإن ظل نفس الطفل القديم الهادئ الحالم كما كان عند بدأ وضعه تحت رعاية "مسز ببشن" وذات مساء سبت وصل "مستر دمبي" إلى منزل "مسز ببشن" على غير توقع وقال: "لقد بلغ ابني السادسة من عمره يا "مسز ببشن" مما لاشك فيه، وأخشي أن يكون الآن متخلفاً عن قرنائه يجب أن يكون ابني متقدمًا عنهم، بل متقدماً كثيراً عنهم، فهناك مركز كبير جاهز له، وتعليم مثل هذا السيد الشاب لا يجب أن يتأخر أو يترك غير كامل، لقد كنت أفكر في مدرسة "دكتور "بلمبر" يا مسز ببشن".

فقالت "مسز ببشن": "أعتقد أن مدرسة الدكتور مؤسسة ممتازة، فقد سمعت أنها تدار بطريقة صارمة جدًا، ولا يوجد فيها سوى الاستذكار الذي يستمر من الصباح حتى المساء. رجع "مستر دمبي" إلى الفندق وقد صمم تصميمًا أكيدًا على أنه يجب أن يعهد به إلى مدرسة الدكتور "بلمبر".

كانت مدرسة الدكتور عبارة عن منزل جميل جداً على شاطئ البحر، وإن لم تكن منزلًا مرحًا في الداخل، فكانت الستائر ذات الألوان الكئيبة تختبئ في شقاء خلف النوافذ، ووضعت المناضد والمقاعد في صفوف،

ويبدو أن حجرة الطعام كانت آخر مكان في العالم يحتمل أن يحدث فيها أكل أو شرب. ولم يكن هنالك صوت خلال المنزل كله سوى دقات الساعة الكبيرة التي في الصالة، وفي بعض الأحيان أصوات السادة الشبان عند تلقي دروسهم.

وقف "بول" ذات يوم على عتبة باب الدكتور بقلب يرتجف، ويده اليمني الصغيرة في يد والده، ويده الأخرى تمسكها بشده يد "فلورنس".

قال "مستر دومبي" في زهو: "والآن يا " بول" هذا هو الطريق في الحقيقية لتكون "دومبي وولديه" وتملك مالًا، فقد أصبحت بالفعل رجلًا تقريباً.

فقال الطفل: "تقريباً"

كان الدكتور جالسًا في مكتبه والكتب من حوله وكرة أرضية عند كل ركبة، قال لمستر "دمبي": وكيف حالك يا سيدي. وكيف حال صديقي الصغير؟ وعندما سكت بدا كأن الساعة الكبيرة التي في الصالة استمرت قائلة: "كيف... حال... صديقي.. الصغير؟ مرة بعد أخرى.

فقال "بول" مجيبًا الساعة والدكتور بالمثل: "حسنًا أشكرك يا سيدي"

فقال "دكتور بلمبر": ها! هل سنجعل منك رجلا!"

فأجاب "بول": "إني أفضل أن أكون طفلًا"

فقال الدكتور: "حقًا.. لماذا؟"

فجلس الطفل على المنضدة وهو ينظر إليه بتعبير دهشة على وجهة.

وكان يضرب بيده على ركبته في كبرياء كما لو كنت الدموع الصاعدة خلفها ويحاول منعها، بينما تحركت يده الأخرى أبعد وأبعد حتى استقرت فوق رقية "فلورنس" قال "مستر دمبى": "وداعًا يا طفلي "بول"

– وداعا يا أبي.

– ستحاول وتتعلم مقدارًا كبيرًا هنا، وسوف تصبح رجلًا ماهرًا، أليس كذلك.

فأجاب الطفل متعبًا: "سأحاول"

_ "وسوف تكبر سريعًا".

فأجاب الطفل: "آه.. سريعًا جدًا!

ومرة أخرى مرت النظرة القديمة سريعًا عبر وجهه مثل ضوء غريب.

ورجعت "فلورنس" لتلقي ذراعيها حول رقبته، وكان وجهها آخر شيء في مدخل الباب عندما التفتت نحوه بابتسامة تشجيع من خلال دموعها.

ثم سمع "بول" صوت الساعة العالي في الصالة وهي تستعلم بوقار: كيف حال صديقي.. الصغير؟

وجلس مطبق اليدين يصغي في صمت، ولكن ربما قد أجاب:

"متعب.. متعب! وحيدًا.. حزينًا جدًا!"

وفي الصباح التالي ذهب الى الحجرة التي يتلقى فيها الشبان دروسهم، وعندما مر بجوار باب نصف مفتوح سمع صوتاً من الداخل يصيح: "هل

هذا دومبي! "عندما أجاب "بول":

"نعم، يا سيدتي".

قالت "مس بلمبر": تعالى يا دمبي فدخل.

وجذبت كومة صغيرة من الكتب الجديدة انتباه "بول" قالت "مس بلمبر": هذه لك يا "دمبي". فقال بول: "هل كلهم، يا سيدتي؟"

فأجاب "مس بلمبر": نعم، وسوف يحصل لك "مستر فيدر" على بعض كتب أكثر قريبًا جدًا... إذا كنت مجداً كما أتوقع أنك سوف تكون يا "دمبي".

فقال "بول": "أشكرك سيدتي"

واستطردت "مس بلمبر": (إنني خارجة للنزهة، وبينما أكون في الخارج، أعني أن أقول من الآن حتى موعد الإفطار، فإني أود أن تقرأ كل ما وضعت عليه علامة في هذه الكتب، لا تضيع الوقت يا "دمبي" وابدأ في الحال"

وعندما انتهى طعام الإفطار تبع "بول"" مس بلمبر" إلى الطابق العلوي. فقالت مس بلمبر: "والآن قل لي ماذا فهمت من هذه الكتب؟"

وقد اختلط كل ما فهمه بول، فقالت مس بلمبر: "آه يا حبيبى إن هذا سيء، والآن خذ الكتاب العلوي وعد عندما تدرس الموضوع"

وكان في بعض الأحيان كان ينسى كل شيء، وأخيرًا ذهب إلى الطابق العلوي مرة ثانية ليسمع دروسه.

وقد أدي عمله على خير وجه، وقد مدحته مس بلمبر في الحال وأمدته بالموضوع (ب)، ومنه انتقل إلى الموضوع (ج) ثم (د) قبل الغذاء. كان من الصعب الاستمرار في دراسته بعد الغذاء مباشرة فقد شعر بالتعب والنعاس والغباوة، ولقد شعر كل الشبان الآخرين بنفس الشعور ولكنهم أجبروا على الاستمرار في دراستهم أيضًا.

وبعد تناول الشاي، كان هناك عمل آخر واستعداد لليوم التالي وأخيرًا حل موعد الذهاب للفراش.

وفي يوم السبت.. يا لها من أيام سبت سعيدة، عندما تحضر فلورنس دائمًا وقت الظهر، فسواء جلسوا أو ساروا معا على شاطئ البحر العظيم، أو سواء كانوا في حجرة مسز ببشن الخلفية المظلمة حيث تغني له فلورنس برقة بينما تستقر رأسه المثقلة بالنوم على ذراعها، ما كان يهتم بول أبدًا، فقد كانت فلور نس هي كل ما يفكر فيه.

ولما عادت مس نيبر ذات مساء يوم أحد مع فلورنس، بعد أن وصلوا مع بول إلى مدرسة الدكتور، قدمت لها فلورنس قطعة صغيرة من الورق، كتبت عليها بضع كلمات.

وقالت: "أنظري هنا يا سوزان، هذه أسماء الكتب الصغيرة التي أحضرها بول معه إلى المنزل ليؤدي هذه التمرينات الطويلة. أريدك أن تشتري لي هذه الكتب إذا استطعت صباح الغد".

فتساءلت سوزان: "ولماذا تريدين هذه الكتب؟"

فقالت فلورنس: "أظن أنه ربما أستطيع أن أساعد بول، وأسهل

الأعمال المقبلة بالنسبة له".

وبعد أن تنتهي فلورنس من دروسها اليومية، كانت تجلس ليلًا تدرس هذه الكنوز لنتابع دروس بول، وسرعان ما تعلمت مثل بول، بل أكثر.

وكانت مكافأتها عظيمة عندما جلست بجانب بول مساء ذات سبت، وأوضحت ويسرت له كل ما هو صعب وكانت تجلس فلورنس دائمًا بعد ذلك مع بول كل مساء سبت وتساعده في صبر على أعمال الأسبوع التالي.

وعندما قال دكتور بلمبر أن بول قد أحرز تقدماً كبيراً وأنه مجتهد بطبيعته، صمم مستر دمبي أكثر من ذي قبل على أنه يجب أن يجبر ليتعلم أكثر.

وسرعان ما فقد بول الحيوية التي كانت لديه في بادئ الأمر، ولكنه احتفظ بكل ما في شخصيته من تفكير عجيب وقديم.

وذات مساء ذهب مستر توتس، وهو أكبر الأولاد سناً في المدرسة ليبحث عن بول، وصاح عندما دخل حجرة بول: أقول: في ماذا تفكر!"

فأجاب بول: "اه.. أفكر في أشياء كثيرة جدًا"

فقال توتس: "هل تفكر حقيقة.."

فقال بول وهو ينظر إلى وجه توتس: "إذا كان يجب عليك أن تموت" فحملق توتس وبدا أكثر اضطرابًا.

– ألا تظن أنك من المحتمل أن تموت في ليلة مقمرة عندما تكون

السماء صافية تمامًا، وتهب الريح فيها كما فعلت في الليلة الماضية؟

فقال مستر توتس وهو ينظر بشك إلى بول: إنه لا يعرف شيئًا عن ذلك.

فقال بول: "أو على الأقل تهب الريح، ولكنها تدوي في الهواء كما يدوي البحر في القواقع، كانت ليلة جميله، وعندما أصغيت إلى الماء فترة طويلة نهضت ونظرت إلى الخارج، وكان هناك قارب في ضوء القمر الساطع، قارب ذو شراع، وكان الشراع مثل الذراع، كل من الفضية. ثم أبحرت لمسافة، وبدا كأنه يناديني.. يناديني أن أذهب! إنها هنا.. إنها هناك".

وانزعج توتس من هذه الصيحة المفاجئة، فيصرخ: من؟

فصاح بول "أختي فلورنس.. إنها تنظر إلى هنا وتلوح بيدها، إنها تراني.. إنها تراني. ليلة طيبة، يا عزيزتي، ليلة طيبة.. ليلة طبية".

وكانت الأمسيات طويلة الآن، لذلك يزحف بول كل مساء إلى نافذته ليري فلورنس، وكانت تمر دائمًا في وقت معين وكان تعارفهم أحدهما على الآخر كشعاع من ضوء الشمس في حياة بول اليومية. وغالبًا بعد الظلام، كان يمر شخص آخر وحيداً أمام منزل الدكتور، ولم ينضم إليهما غالبًا يوم السبت، كان يفضل أن يأتي متخفياً وينظر إلى النوافذ حيث يستعد ابنه ليصبح رجلًا: وينتظر، ويراقب ويضع الخطط ويأمل.

الفصل التاسع

أعمال المكتب

كانت مكاتب "مستر دومبي" في فناء حيث يوجد دكان في الزاوية للفاكهة المختارة، وحيث يعرض الباعة للبيع في أي وقت بين الساعة العاشرة والخامسة، شباشب، ومحافظ جيب، وأطواق للكلاب، وصابون.

وعندما يظهر مستر دمبى ينحني هؤلاء الباعة في احترام، ويهرع البواب ليفتح الباب على مصراعيه وعندما يرى مستر برش الساعي مستر دمبي يحضر، يسرع إلى غرفة مستر دمبي يشعل المدفأة، ويضع مقعده في مكانه، وينتظر لحظة دخول مستر دمبى ليأخذ معطفه وقبعته ويعلقها.

وكانت الغرفة القريبة من غرفة دمبي يشغلها مستر كاركر مديره. وكان مستر كاركر رجلًا في الثامنة والثلاثين أو الأربعين من عمره، ذو تقاطيع حمراء، وصفين من الأسنان اللامعة المستوية، وكان من المستحيل تجنب ملاحظتها فقد كان يبرزها عندما يتكلم وكانت لديه ابتسامة عريضة على وجهه، تشبه زمجرة القطة بعض الشيء.

قال "مستر كاركر" شيئًا كيف حالك هذا الصباح؟ "وذلك عندما دخل غرفة "مستر دمبي" ذات يوم ومعه عدد من الجرائد في يده. فقال مستر دمبي: -"كيف حالك"

- لقد أرسل "مورفن" تقريراً أن شاباً مات في الوكالة التي في مدينة

باربادوس، ويقترح أن يحجز مكانًا على الباخرة الابن والوريث للشخص الذي سيحل محله، أظن أنك لا تهتم بمن سيذهب؟

فهز مستر دمبي رأسه بعدم مبالاة فقال مستر كاركر: "إنها ليست وظيفية حسنه. من هذا؟

"أدخل!"

ظهر ولتر ومعه بعض الخطابات في يده، وقال: "هذه خطابات لمستر دمبي يا سيدي"

فقال مستر كاركر وهو يأخذها منة بشدة: "حسنا، اذهب إلى عملك".

ولكن أثناء آخذ الخطابات، سقط خطابًا من مستر كاركر على الأرض، فتردد ولتر لحظة ظناً منه أن أحدهما سيلاحظه، ولكنه عندما وجد أنهما لم يلاحظا الخطاب، التقطه، ووضعه بنفسه على مكتب مستر دمبي. وكان هذا الخطاب هو تقرير مسز ببشن، المنتظم وقد كتبت عنوانه فلورنس كالمعتاد.

وعندما جذب ولتر اهتمام مستر دمبي لهذا الخطاب، نظر إليه بحدة كما لو كان قد أعتقد أنه قد اختاره من باقي الخطابات فقال بكبرياء: "يمكنك أن تترك الحجرة يا سيدي"

سحق الخطاب في يده، وعندما لاحظ أن ولتر قد خرج من الباب، وضعه في جيبه •

قال مستر دمبى: وأنت تريد أن ترسل شخصاً ما إلى جزر الهند الغربية، أرسل "جاي" الشاب، استدعه.

رجع ولتر بسرعة.

فقال مستر دمبي: "سوف أرسلك لتحل محل أحد شبابنا في مكتب المحاسبة في مدينة "باربادوس" بجزر الهند الغربية.

فتساءل ولتر: "هل سأعيش هناك يا سيدي؟"

فسال مستر دمبي: "ماذا يقصد يا كاركر؟ "

فتردد ولتر: "هل سأعيش هناك، يا سيدي؟

فأجاب مستر دمبى: "بالتأكيد"

فانحني ولتر، فقال مستر دمبي: "لا داعي لكي ينتظر، يا كاركر، إلا إذا كان يريد أن يقول شيئاً".

فأجاب ولتر وهو يرتجف وغير قادر على التفكير: "لا يا سيدي".

لست أدري إلا بصعوبة.. إني.. إني شاكر جدًا يا سيدي •

فقال مستر دمبي: "لا داعي لأن ينتظر، يا كاركر"

وخرج ولتر وهو ممتلئ بالدهشة. لا يستطيع أن يصدق إلا بصعوبة أنه على وشك أن يرسل إلى جزر الهند الغربية، وسرعان ما يفتقد العم "صول" و "كابتن كتل".

ولن ير فلورنس دومبي. كلا يعني بول.. وبالنسبة لكل من يحبهم ويهتم بهم في حياته اليومية.

الفصل العاشر

عودة "بول" للبيت

اقتربت العطلة الصيفية، وذات مساء عندما دخل بول في غرفة مستر فيدر وجد أستاذه يملا بيانات في بعض الخطابات المطبوعة، بينما البعض الآخر الذي قد ملا بالفعل أخذ مستر توتس يطبقها ويقفلها. قال مستر فيدر: "آه، دمبى، إنك هنا أليس كذلك؟"

ثم قال وهو يلقي بأحد الخطابات إليه:" إنك أنت أيضا "يا دمبي" هذا خطابك" كانت هذه دعوة لحفلة يقيمها دكتور بلمبر للمدرسة بأجمعها، وقد أخبروه مستر فيدر، لسروره ألعظيم، أن أخته قد دعيت، وأنه حيث قد بدأت الإجازة من ذلك اليوم فيمكنه أن يذهب معها بعد الحفل.

وكانت رأس "بول" التي في بعض الأحيان ثقيلة جدًا ومؤلمة، ولكنه كان في تلك الليلة يشعر بعدم راحة حتى أنه اضطر أن يسندها على يدهه وبالتدريج هبطت على ركبة مستر توتس، واستقرت هناك كما لو كان لا يهتم برفعها مرة ثانية.

وسمع مستر فيدر ينادي في أذنه، ويهزه بلطف، ليثير انتباهه، وعندما رفع رأسه وجاء أن الدكتور قد دخل الغرفة.

وأن النافذة مفتوحة وجبهته مبللة بقطرات الماء، ويبدو أن هنالك شي

يتعلق بالأرض فلم يكن يستطيع أن يقف بثبات، وأيضًا بالنسبة للجدران فيبدو أنها تدور.

وعندما اخذ مستر توتس "بول" بين ذراعيه ليحمله إلى الطابق العلوي، لاحظ بول بدهشة أن الباب كان في مكان مختلف عن المكان الذي توقع أن يسجله فيه.

وعندما رقد وعيناه مغلقتان، سمع الطبيب يقول إنه لديه ضعف جسماني شديد، وعندما رجع الطبيب مع دكتور بلمبر قالت، مسز بلمبر: "نعم، أعتقد أننا يمكننا أن نزيل كتب هذا الشاب الآن يا دكتور بلمبر.

فقال دكتور بلمبر:" بكل الطرق"

وأخيرًا حل يوم الحفل، وعندما ارتدى بول ملابسه، نزل إلى غرفة الاستقبال، ووصل بعده مستر توتس ومستر فيدر وكان كل واحد يمسك بقبعته في يده، كما لو كان يعيش في مكان آخر.

وسرعان ما وصلت فلورنس وكانت تبدو رائعة الجمال في ملابس الرقص البسيطة وفي يدها بعض الزهور النضرة، وركع على الأرض لتضع ذراعيها حول رقبة بول وتقبله.

وسألها بول: "ولكن ماذا حدث، بافلوى؟ لأنه كان متأكدًا أنه قد رأي دموعًا.

فأجابت فلورنس: "لا شيء، يا عزيزي، لا شيء"

ولم يستطع أن يفهم بول لماذا أدارت فلورنس وجهها بعيدًا لمدة لحظة

ثم التفتت ثانية وقد أشرق وجهها بابتسامه.

وكانوا جميعا رفقاء به حتى الغرباء الذين أتوا وتحدثوا معه من وقت لآخر وسألوه كيف حاله وعما إذا كان متعبًا، وكانت فلورنس تود أن تجلس بجانبه طول الليل ولا ترقص أبدًا، ولكن بول جعلها ترقص عندما أخبرها كم يسره ذلك، ولقد أصدقها القول: لأن قلبة الصغير امتلأ بالفرحة وأضاء وجهه من السرور عندما رأي مدى إعجابهم جميعا بها".

وحان الوقت للانصراف، واستأذن الشبان في الانصراف من بول بطريقة صاخبة تمامًا، ملوحين بقبعاتهم له، مندفعين على السلالم لمصافحته، وكل واحد يصيح: "لا تنساني ياد مبى".

وعندما وصل بول إلى المنزل، حمل على السلالم التي يتذكرها جيدًا، كما تذكر أيضًا فراشه عندما وضعوه فيه، ولكن كان هناك شيئًا يضايقه، فقال: "أريد أن أتحدث إلى فلورنس من فضلكم، أتحدث لفلورنس نفسها لمدة دقيقة".

وانحنت فوقه بينما وقف الآخرون بعيد.

– فلوي يا حبيبتي، ألم يكن هذا بابا في الصالة عندما أحضروني من العربة؟"

– نعم، يا عزيزي.

من أنه لم يصرخ ويذهب الى غرفته، يا فلوى، عندما رابي أدخل، أليس كذلك؟

فهزت فلورنس رأسها، وضغطت شفتيها على وجنتيه فقال بول الصغير: "إني سعيد جدًا لأنه لم يصرخ، لقد ظننت أنه سيصرخ، لا تخبريهم بما قلت".

الفصل الحادي عشر

ماذا كانت تقول الأمواج دائماً

لم ينهض بول أبدًا من فراشه الصغير، فقد رقد هناك في هدوء يصغي إلى الضجة التي في الشارع، غير متهم بالوقت الذي يمر.

وكانت لأفكاره طريقة غريبة في التجول إلى النهر، الذي يعلم أنه ينساب خلال المدينة الكبيرة، وكان يفكر في مدى ما يبدو من مواد وعمق، وكيف ينحدر بثبات إلى البحر.

وكان يسألها في بعض الأحيان: "لماذا لا يتوقف أبدًا يا فلوى. أظن أنه يحملني بعيدًا!"

وتغير الناس الذين حوله ما عدا فلورنس، فلم تتغير "فلورنس" ابدًا، ولكن كان يعود غالبًا شخصاً يضع رأسه بين يديه.

ويظل هكذا مدة طويلة، ويجلس ساكنًا لا يتحدث أبدًا، ولا يرفع شأنه إلا نادرًا، حتى أن بول بدأ يتعجب إذا كان حقيقة، وفي أثناء الليل يراه جالسًا هناك في خوف.

فقال: "فلوى، ما هذا..."

– أين يا عزيزي..

– هناك في نهاية السرير

– ليس هناك شيء سوي بابا...

رفع الشخص رأسه ونهض ثم أتي إلى جانب الفراش قائلًا:

– يا ابني.. ألا تعرفني؟

ونظر "بول" في الوجه، ولكن الوجه الذي ظن أنه تغير تحرك.

كما لو كان متألمًا، وقبل أن يستطيع أن يجد كلتا يديه ليجذبه نحو، أستدار الشخص بسرعة من الفراش الصغير، وخرج من الباب.

وفي المرة التالية عندما رأى الشخص جالسًا في نهاية السرير ناداه: – "لا تأسف على يا والدي العزيز في الحقيقة إنني سعيد تمامًا".

ولم يحاول أن يعرف "بول" أبدًا كم عدد الليالي التي أنحدر فيها النهر الأسود نحو البحر بالرغم منه"

"بأي سرعه يجرى النهر بين الضفاف الخضراء، يا "فلوى" لكني قريب جدًا من البحر. فإني اسمع الأمواج".

وقد أخبرها أن حركة القارب في مجرى الماء تبعث فيه الراحة. بالخضرة الضفاف الآن، ويا لنضرة الأزهار التي تنمو عليها وخرج القارب إلى البحر الآن، ولكنه يتحرك في هدوء، وهناك شاطئ أمامه الآن، من الذي يقف على الضفة؟

"إن ماما تشبهك، يا" فلوى" أني أعرفها من وجهها"

وأضاء ضوء ذهبي على الحائط ولم يتحرك أي شيء آخر في الحجرة قد مات "بول".

الفصل الثاني عشر

الأب والابنة

هناك سكون خلال منزل" مستر دمبي" وكان يرقد الطفل في هدوء وجمال على فراشة الصغير.

وطول هذا الوقت، لم ير أحد الوالد المكلوم، فقد كان يجلس في الركن الداخلي في حجرته المظلمة عندما يكون هناك أي شخص. ولا يبدو أن يتحرك أبدًا في الأوقات الأخرى سوى للمسير جيئة وذهابًا ولكن في الصباح كان هناك همس بين الخدم أنهم سمعوه يذهب إلى الطابق العلوي في منتصف الليل، وأنه مكث هناك في الحجرة حتى أشرقت الشمس.

والان، بين مجموعة من الخدم مرتدين ملابس الحداد، وبين النساء الباكيات، مر "مستر دمبى "خلال الصالة الى العربة التي تتنظر ليستقلها. وظن الناس أن الحزن الشديد لم يتغلب عليه، ولكن كان وجهه شاحباً بلا حياة.

وحينئذ تحركت الجنازة ببطء في الشارع حتى وصلت بينما جرس الكنيسة يدق، وهي نفس الكنيسة التي تلقى فيها الطفل كل ما سوف يتركه على الأرض.. الاسم.

وعندما انتهت الصلاة وغادر القديس، تساءل "مستر دمبي" عما إذا كان الشخص الذي سأله للحضور لتلقي التعليمات بشأن شاهد المقبرة

موجود؟

فتقدم شخص إلى الأمام وقال: -"نعم ".

وقال "مستر دمبي: -"في الحقيقة ليس هنالك شيء يكتب سوى الاسم والعمر."

فقال الرجل: من فضلك هل تتكرم بقراءتها مرة ثانية؟

أظن أن هناك غلطة. "ثم أشار الى الكلمات: الطفل الحبوب الوحيد قائلًا: أظن أنها يجب تكون الابن، يا سيدي " فقال "مستر دمبي ": أنك على حق، بالطبع، صححها ٠ وبخطوة مسرعة رجع الأب إلى العربية، وكان وجهه مختفيا خلف معطفه للمرة الأولي. ولم يره أحد ذلك اليوم، ولم يعرف أحد. ماهي أفكاره؛ وماقي قلبه؟ وماهي متاعبه.

وفي اليوم التالي قالت "فلورنس" لمسز شيك: " أخبريني أكثر عن بابا يا عمي العزيزة؛ هل هو مكسور الخاطر تماماً؟ هل هناك أي شيء يمكنني عمله ٠ ٠".

فقاطعتها "مسزشيك" بسرعة: -"يا طفلتي العزيزة، من ماذا تتحدثين؟ لا يجب أن تظهري نفسك له؛ لا تحلمي بمثل هذا الشيء.».

وفي بادئ الأمر لم تستطيع فلورنس أن تعمل شيئا إلا أن تصيح وتسير جيئة وذهابا. وفي بعض الأحيان تهرع إلى حجرتها وترقد ووجهها نحو الفراش في ألم مفاجئ من التذكر. ولم تكن تعرف السلوى وأنها مرارة وقسوة الحزن ٠

وعندما لا يكون أي شخص مستيقظاً في المنزل، وتكون الأنوار كلها مطفأة؛ تغادر غرفتها الخاصة سرا؛ وتهبط السلالم بدون صوت الى باب غرفة والدها، تكاد تتنفس بصعوبة وتضع وجهها ورابعها وتضغط بشفتيها على الباب في رغبة مدفوعة بحبها.. وكانت رغبتها أن يسمح لها بإظهار بعض الحب له، وأن تكون مواسية له. وفي سبيل هذا، تتمنى أن تركع عند أقدامه وتتوسل إليه، إذا كانت تجرؤ.

ولم يكن يعرف أحد ذلك، فقد كان الباب مغلقاً دائماً، عاش وحيدًا ولم يرها أبدًا أو يسأل عنها، وربما حتى لم يعرف أنها في المنزل ولم تكن" فلورنس" أكثر من طفلة في العمر – فلم تتعد الرابعة عشر، وكانت الوحدة وكأبة المنزل الكبير كفيلة أن تؤدي بخيال أكبر منها أن يفكر في مخاوف غامضة، ولكنها كانت ممتلئة بأفكار عن الحب فلم تسمح لمثل هذه المخاوف بأن تخطر لها.

فلم تكن تستطيع الطفلة المسكينة أن تذهب إلى الفراش، بلى لم تذهب حتى الآن منذ، موت أخيها، دون أن تقوم بالزيارات الليلية لباب والدها.

وفي هذه الليلة في اللحظة التي لمست فيها "فلورنس" الباب وجدته مفتوحًا.

وكان هناك تشجيعًا عند رؤية شعاع من الضوء ينبعث من الداخل، فدخلت في رقة، ويديها مرفوعتان ترتجفان، يدفعها الحب الذي يعتمل في نفسها.

جلس والدها منهمك في التفكير، وعيناه مثبتتان على المنضدة، ووجهه متجه نحوها ويبدي عليه الهزال والبؤس.

"بابا! بابا؟ تحدث إلى، يا والدي العزيز"

انزعج لسماع صوتها وقفز من مقعده، وقال بشدة: "ماذا حدث لماذا أتيت الى هنا؟ ماذا أخافك؟"

إذا كان قد أخافها شيء، فهو الوجه الذي نظر به إليها، وجمد الحب الدافئ الذي يعتمل في قلب ابنته الشابة، فوقفت ونظرت كما لو كانت قد تحولت الى حجر.

لم يكن في وجهه لمسة واحدة من الحب أو الشفقة، ولا لمسة من الاهتمام أو المعرفة الأبوية أو الرقة.

هل يرى أمامه المنافس الناجح لابنه في الصحة والحياة؟ هل ينظر إلى منافسه الناجح في عاطفته لابنه هذا؟ هل من الممكن أن يوجد من المؤلم أن ينظر الى جمالها ويتذكر ابنه الميت؟

إن الحب سريع في أن يعرف عندما لا تكون هنالك رغبة فيه ولا أمل، فقد مات الأمل في حب "فلورنس" بينما كانت تقف تنظر إلى وجه أبيها.

"إني أسألك يا فلورنس، هل أنت خائفة؟ هل حدث هناك أي شيء جعلك تأتين الى هنا؟

-"لقد حضرت يا أبي.."- ضد رغبتي، لماذا؟

ورأت أنه أدرك السبب، فقد كان مكتوبًا بوضوح على وجهه.

فأسقطت رأسها على يديها بصرخة منخفضة طويلة.

دعه يتذكر ذلك الوقفية في تلك الحجرة في السنوات المقبلة، ربما تمر بسرعة من ذاكرته كما يعتقد، ولكنها هناك. دعه يتذكر هذا الموقف في تلك الحجرة في السنوات المقبلة.

وأخذها من ذراعها، وكانت يده باردة متراخية.

قال وهو يتناول الضوء ويقودها نحو الباب: – (أظن أنك: متعبة، وتريدين الراحة، أذهبي يا "فلورنس" لقد كنت تحلمين.

سوف أمكث هنا لأضيء لك السلم، ليلة طيبة".

كانت لا تزال تغطي وجهها عندما صاحت وهي تجيب: "ليلة طيبة، يا والدي العزيز". وسارت نحو السلالم في صمت، ونظرت مرة واحدة، كما لو كانت تود الرجوع إليه لولا خوفها. لقد كانت فكرة عابرة لا أمل فيها لأنها لم تجد تشجيعاً، فقد وقف والدها هناك ممسكاً بالنور– صلباً، بلا حراك– حتى اختفى فستان الطفلة الجميلة في الظلام.

دعه يتذكر هذا الموقف في تلك الغرفة في السنوات المقبلة.

إن آخر مرة راقبها من نفس المكان وهي صاعدة تلك السلالم بينما كان أخوها بين ذراعيها. لم يتحرك قلبه نحوها الآن، بل قسى عليها، ثم ذهب إلى غرفته وأقفل الباب، وجلس في مقعده وبكي ابنه المفقود.

الفصل الثالث عشر

ولتر، يذهب بعيداً

كان قلب "ولتر" حزينًا وهو ينظر حوله في غرفة نومه القديمة، ويفكر في أنها ليلة واحدة، وبعد ذلك تنتهي علاقته بها، وربما للأبد.

ولكنه لم يرغب في أن يترك عمه وحيدًا في الحجرة الخلفية الصغيرة، ولهذا عندما انتهى من عمله في يومه الأخير، ذهب ولتره ليجلس معه.

وقال بمرح وهو يضع يده على كتف الرجل العجوز، ماذا سوف أرسل إليك من "باربادوس" يا عمي"

-"الأمر يا عزيزي وولي. الأمل في أننا سنتقابل مرة ثانية على هذا الجانب من هذا القبر. أرسل لي كثيرًا من الأمل بقدر ما تستطيع".

فقال ولتر: "لا تنسى ما سترسله لي، يا عمي".

فأجاب الرجل العجوز: "كلا، يا ولدي كلا. كلا ما أسمعه عن مس دمبي" وخاصة بعد أن أصبحت وحيدة، سأكتب يا عزيزي المسكين. وإن كنت أخشى أنه لن يكون كثيرًا؟ يا وولي".

فقال ولتر: إذا رأيتها فأخبرها كم فكرت فيها عندما كنت هنا، وأخبرها إنني قلت إنني لا أستطيع أن أنسى وجهها الجميل أو طبيعتها الحلوة الطيبة".

وفي هذه اللحظة حضرت "فلورنس" و "سوزان نيبر" إلى الدكان، ولما كان موليا ظهره إلى الباب، فلم يعرف شيئًا عن ظهورهما، وإنما رأى فقط عمه وهو يقفز من مقعده.

فصاح ولتر متعجبًا: "لماذا، يا عمي، ماذا حدث؟"

فأجاب سلمون العجوز: "مس دمبي"! وقبلت فلورنس العم صول على كل خد، ثم مدت يدها إلى ولتر وتساءلت فلورنس: "هل أنت ذاهب بعيدًا، يا ولتر؟ فأجاب: نعم يا مس دمبي، أمامي رحلة بحرية.

فقالت: إنني متأكدة أن عمك يأسف لذهابك، إني آسفة أيضًا يا عزيزي ولتر.

والتفتت فلورنس إلى العم صول، الذي كان ممتلئًا بالإعجاب والدهشة، فقال صول العجوز: "لقد كبرت! لقد تحسنت! ومع ذلك لم تتغيري، نعم، فهذا التعبير كان على الوجه الصغير أيضًا.

فقالت فلورنس بابتسامة: "أنت تتذكرني، وكيف كنت صغيرة حينئذ؟"

فقال العم صول: "سيدتي العزيزة الشابة، كيف أستطيع أن أنساك؟ ففي اللحظة التي دخلت فيها، كان "وولي" يتحدث عنك إلي، وقد ترك رسائل لك..".

فقالت فلورنس: "هل فعل هذا؟ أشكرك يا ولتر!"

وبينما كانت تغادر، سألت ولتر: "هل تظن أنك ستغيب مدة طويلة؟"

فقال ولتر: "لست أدري، أخشى ذلك، فقد قال هذا" مستتر دمبي"

عندما عهد الى بهذه المهمة".

فتساءلت فلورنس وقد بدا القلق على وجهها: هل هذه خدمة، يا ولتر؟ ...

وقد أجاب وجهه قبل شفتيه، وكانت الإجابة بالنفي. فقالت في خجل: "أخشى ألا تكون محبوبًا من والدي – ولكن سوف يشفي من حزنه العميق وربما يتحدث بصراحة يومًا ما، فإذا فعل فسوف أطلب منه أن يرجعك لأجل خاطري".

وعندما جلست في العربة، أعطته لفة صغيرة قائلة: "لقد صنعت هذه الهدية لبول، خذها مع حبي، والآن فليباركك الله يا ولتر. لا تنساني.. لقد أصبحت أخي يا ولتر، وخاصة بعد أن ذهب بول".

الفصل الرابع عشر

وجوه جديدة

ذهب "مستر دمبي" ليتناول طعام الإفطار مع صديقه "الصاغ" باجستوك قبل أن يبدئوا في رحلة إلى ليمنجتون ذات يوم.

فقال الضابط: "إنني سعيد برؤيتك، يا دمبي" انثني فخور برؤيتك.. ليس هناك رجال كثيرين في أوربا ليقول لهم "جوي باجستوك" ذلك.. ولكن جوي باجستوك فخور أن يراك، يا دمبي،

فأجاب، مستر دمبي: "إنك شفوق جدًا، يا حضرة الضابط.

ولم يناقش "مستر دمبي" هذه النقطة، ففي صادقته كان مسرورًا من صحية الضابط، فلا نستطيع أن نقول إنه منجذب تجاهه ولكنه قد اندمج قليلًا.

قال الضابط: ولقد كنت تنظر إلى الطريق، يا سيدي، هل رأيت. صديقتنا؟

فأجاب دمبي: "هل تعني مس توكس، كلا".

فاستطرد الضابط: "تلك المرأة البلهاء العجوز يا سيدي، تهدف إلى شيء عال، إلى الزواج، يا دمبي".

قال مستر دمبي: "إني آسف من أجلها".

وفي تلك اللحظة بدت "مس توكس" في نافذتها وهي تروي أزهارها.

فقال الضابط، وهو يتجه برأسية إلى "مس توكس" الغير مدركة: "إن طموحي هو غباء، وإذا بسبب لك الغباء، يا سيدتي، فقد كنت تفعلين ذلك في سبيل رضاء قلبك يا سيدتي، بدون أي اعتراض. ولكن عندما تدمج بين أشخاصا كرماء ليس عندهم شك كرد لتكريمهم لك بما أبدوه من شفقة، فأنك تشرين ثائرة جو العجوز.

فقال مستر دمبي وقد استمر وجهه خجلًا أمل أنك لا تقترح أي شيء مثل هذا الغباء من جانب" مس توكس "يا حضرة الضابط كما..."

فأجاب الضابط: أنا لا أقترح أي شيء، ولكن "جوي باجستوك" قد عاش في العالم يا سيدي، وأن (جو) يخبرك يا (دمبي) أن هناك امرأة لها طموح شيطاني".

وأرسل "مستر دمبي" نظرة غضب في ذلك الاتجاه. وقبل أن تتحرك العربة، ظهرت "مس توكس" في نافلتها– ولوحت بمنديل" أبيض كالزنبق ولكن "مستر دمبي" تلقى هذه التحية ببرود جدا بالنسبة إليه. وبدا أن سلوكه قد أعطى الضابط سرورًا عظيمًا.

ولم يجد "مستر دمبي" سرور أو راحة في الرحلة، فقد بدت كل الأشياء قاتمة وباردة وميتة بالنسبة إليه.."

لقد ذهب طفل.، وبقيت طفلة، فلماذا زال مصدر أمله بدلًا من كزه فيها؟ هذه كانت أفكار "مستر دمبي" طول الطريق.

وفي صباح اليوم التالي في "ليمنجتون" كان الضابط "ومستر دمبى"

يسيران وقد تشابكت أذرعتهما، رأيا كرسي متحرك يتجه نحوهما وقد جلست فيه سيدة وبالرغم من أن السيدة لم تكن شابة، فقد كان بها وجه متورد وكانت ملابسها وسلوكها صغير بالنسبة لسنها، وكانت تسير بجانب الكرسي سيدة أصغر سنا كانت أنيقة جدا ومتكبرة جدًا.

فقالت السيدة الجالسة في الكرسي بطريقة غير طبيعية: "يا عزيزتي أديت" هذا الصاغ باجستوك:

فاندفع الضابط إلى الأمام وتناول يد السيدة الجالسة في المقعد وقبلها، ثم انحني إلى السيدة الأخرى.

قال الضابط: "هل أستطيع أن أقدم صديقا، يا سيدتي؟

مستر دمبي "مسز سكيتون "،"مستر دمبي"، "مستر جرانجر" أن صديقي دمبيي – يا سيدتي – رجلًا ذا سلطة في أعظم مدينة في العالم.

فقالت مسز سكيتون: "أن أحدًا لا يجهل أهمية "مستر دمبي" العظمي.

فشكرها "مستر دمبي" للمجاملة بانحناءة من رأسه، ثم التفت الى السيدة الأصغر سنًا وقال! – هل تسكنين هنا، يا سيدتي؟

–"كلا، لقد زرنا أماكن كثيرة جدًا، إن والدتي تحب التغيير".

فقالت مسز سكيتون: "أؤكد لك يا مستر دمبى، إنني أحب الريف، لقد فقدت قوتي في المجتمع، أن عاطفتي القوية نحو البقر، أن ما أريده هو الإخلاص، أن ما أريده هو الصراحة وأقل السلوك تصننها، فإننا غير

طبيعيين بطريقة مخيفة".

ثم دعت "مستر دمبى" لزيارتهم في أي من مساء، فانحنى الضابط ومستر دمبي، كرمتهما السيدة الكبيرة بتلويح يدها بينما أحنت السيدة الصغيرة رأسها انحناءة خفيفة جدًا.

واستدار الضابط ومستر دمبى ونظرا وراءهما بعد ذهابهما وقال مستر دمبى: – إنها تبدو لي من أصل طيب جدًا.

فقال الضابط: "من أصل طيب، يا سيدي! إن مسز سكيتون المحترمة، يا سيدي، هي أخت المرحوم" لورد فينكس" وعمة اللورد الحالي، أن العائلة ليست غنية، ولكن إذا بحثت من حيث الدم يا سيدي..." ومشى الضابط. كما لو كان غير قادر عن التعبير عما في نفسه بالكلمات.

فقال مستر دمبى: –"لاحظت أنك خاطبت الابنة باسم مسز جرانجر".

فقال الضابط: أديت سكيتون– يا سيدي– تزوجت الكولونيل جرانجر وهي في الثامنة عشر، ومات في السنة التالية لزواجه، وهي في الوقت الحاضر لم تبلغ الثلاثين بعد، وربما تزوجت عشرون مرة ثانية، لو لم تكن متكبرة".

وبعد أيام قليلة عندما زار "مستر دمبى" والضابط " مسز سكيتون" وجداها متكئة على مخدات كنبه، بينما وقفت "اديث" بجانب القيثارة التي كانت تعرف عليها وهي تبدو أكثر أناقة وكبرياء عن ذي قبل.

قال مستر دمبى، وهو يتجه نحوها: "آمل، يا مسز جرانجر

ألا نكون سبب توقفك عن العزف؟"...

– أنت؟ أوه كلا!"

فقالت" مسز سكيتون": "لماذا أذن لا تستمري، يا عزيزي "أديت؟"

– لقد توقفت كما بدأت لأرضى نفسي!

فقالت أمها: "هل تعرف يا مستر دمبي؟ إنني في بعض الأحيان أختلف في الحقيقة عن عزيزتي اديث...".

فقالت اديث: "ليس تمامًا، أحيانًا يا والدتي؟"

فقالت والدتها: – لن يكون تمامًا أبدًا، يا عزيزتي؟ إن هذا يحزنني"

وبعدئذ قال مستر دمبى لاديث: "يبدو أنه لا يوجد رفقاء كثيرون هنا"

– أظن لا، فإننا لا نرى أحدًا "فقالت مسز سكيتون" وهي جالسة على الكنبة: "لماذا؟ حقيقة

لا يوجد هنا أحد نهتم بالاختلاط به".

ثم التفت إلى عدد من الرسومات ملقاة في أنحاء الحجرة فسأل مستر دمبي " أديث": – هل ترسمين؟"

– نعم.

وهل تعزفين؟

–"نعم "

–"وتغنين؟"

-"نعم"

ولقد أجابت كل هذه الأسئلة بطريقة غريبة كما لو كانت تود عدم الإجابة.

فقال مستر دمبى: - "هل أمل في أن أسمعك."

- أوه بالتأكيد؟ إذا رغبت في ذلك، ثم جلست إلى القيثارة، فنهض مستر دمبى، ووقف بجوارها يصغي.

وعندما انتهت الجميلة المتكبرة، نهضت وتلقت شكر ومدح "مستر دمبى" بطريقة تبين عدم اهتمام، ثم اتجهت مباشرة إلى البيانو وابتدأت تعزف.

وغنت "اديث" الأغنية التي غنتها ابنته غير المحبوبة لابنه الراحل، ولكن مستر، دمبي لم يعرفها وإذا كان عرفها فهل كانت أغنية "فلورنس" تؤثر فيه!

الفصل الخامس عشر

أخبار غريبة عن العم صول

عاشت "فلورنس" وحيدة في المنزل الكبير الخالي، ومر يوم بعد يوم ولازالت تعيش وحيدة. أنت ما فيها تتخيل ماذا تكون حياتها إذا أحبها والدها، لدرجة أنها في بعض الأحيان تعتقد ذلك. وفي أحيان أخرى كانت تتخيل أن أمها لازالت على قيد الحياة، فيا للسعادة عندما تتعلق بها في حب، ويا للوحدة عندما يأتي المساء وليس هناك أحد.

ولم يعرف والدها مدي حبها له، فقد كانت صغيرة جدًا ولم تتعلم أبدًا كيف تعبر عن حبها، يجب أن تكون صبورة، وتحاول أن تتعلم ذلك بعد فترة حتى يفهم أنها تحبه.

أصبحت هذه الفكرة العامة لحياتها..

وفي ذات صباح. قالت "فلورنس" لسوزان نيبر": كم مضى من الوقت قبل أن نسمع أخبارًا عن ولتر؟

فأجابت وصيفتها: "زمن طويل حقًا، يا مس فلوى! ويقول "بيرش".. ولكن ماذا يهم ما يقوله!

فتساءلت فلورنس: "ماذا يقول، يا سوزان؟ ألا تخبريني؟"

– "لماذا، يا آنسة، لم يحدث أن ذهبت بسفينة في هذه الرحلة بدون

أخبار عنها لمدة طويلة كهذه".

فقالت "فلورنس" بسرعة: يجب أن أزور عم "ولتر" دعينا نذهب هناك في الحال، يا سوزان"

استقبلهم العم صول عند الباب، وعلى المائدة وحول الحجرة كانت هناك خرائط يتتبع فيها صانع الأدوات المرة بعد الأخرى طريق السفينة المفقودة عبر البحر.

ورأت "فلورنس" في الحال أن هناك تغييرًا في الرجل العجوز، فظنت أنه تحدث بغضب:

فقالت متحببة: –"إنك لست في صحة جيدة، لقد كنت قلقاً جداً، أنى متأكدة أنك لست على ما يرام"

فأجاب الرجل العجوز: –"إنني في صحة جيدة وفي ثبات كأي رجل في مثل سني يأمل أن يكون"

وعندما كانت "فلورنس" به راحلة أخذ يديها بين يديه ووضعها على شفتيه، ثم أسرع بها خارجًا الى العربة في طريقة غريبة.

وفي صباح اليوم التالي، ذهب "روب" الصبي الذي كان يشتغل في الدكان وأيقظ "الكابتن كتل"، الذي كان مع "صول جيلز "عندما زارته "فلورنس".

فصاح الكابتن: "ماذا حدث".

فأخرج "روب" مجموعة من المفاتيح وربطة مقفولة، وقال: "عندما

استيقظت هذا الصباح وجدت هذه الأشياء على وسادتي وباب الدكان غير مقفول وقد ذهب "مستر جيلز".

فأخذ الكابتن اللفافة وفتحها وقرأ ما يلى:

"عزيزي ند كتل"، توجد وصيتي في الداخل، لا تفتحها قبل سنة، أو حتى تصلك أخبار أكيدة عن "ولتر" العزيز، وإذا لم تسمع عنى أبداً، أو تراني مرة ثانية، فتذكر صديقاً قديماً كما سوف يتذكرك إلى النهاية.. ومن فضلك وعلى الأقل عندما يشتهي الوقت التي ذكرته، احتفظ بمسكن في المكان القديم لولتر، لا تستعلم بشأني، فهذا ليست له فائدة. ليس هناك شيء أكثر، يا عزيزي زد من صديقك المخلص، "سولمون جيلز"

وعندما تذكر الكابتن سلوك الرجل العجوز الغريبة، خشي أن يكون القلق والحزن على "ولتر" قد تغلب على "صول جيلز"، فدفعه للانتحار....

لم يترك "الكابتن كتل" أي جزء من المدينة بدون زيارة ولمدة أسبوع بأكمله كان يقرأ عن كل المفقودين ومن وجد من الناس في جميع الجرائد، وذهب كل ساعات النهار ليتحقق من شخصيته "سمولون جيلز"

وأخيرًا تخلى "كابتن كتل" عن كل هذه المحاولات التي لا أمل فيها، وابتدأ يفكر فيما يفعل بعد ذلك: فاعتبر أن واجبه الأول هو الاحتفاظ بمسكن في المكان القديم لولتر، ولذلك كان قرار الكابتن أنه يجب أن يعيش حيث توجد دكان "سولمون جيلز" ويستمر في تجارة الأدوات ويرى النتيجة..

ولكن لما كان هذا يعني أن يترك مسكنه عند مسز "ماك ستنجر" ولما كان يعرف أن تلك المرأة العنيدة لن تسمح له بترك مسكنه، لذلك قرر الكابتن أن يهرب..

فذهب الى بيته في منزل مسز "مالك ستنجر" لآخر مرة.

وقال الكابتن متأثراً من ضميره: "هل لك يا سيدتي أن تقبل إيجار ثلاثة أشهر مقدماً؟".

فأجابت مسز " ماك ستنجر" بحدة كما ظن الكابتن: -"ولماذا يا كابتن كتل؟ "

فقال الكابتن وقد تملكه خوف شديد: "إني لا أستطيع الاحتفاظ بنقودي بطريقة حسنة، يا سيدتي. وسأكون شاكرًا إذا قبلت"

فقالت مسز ماك ستنجر: "حسنًا، يا كابتن كتل، ليس في وسعي أن أرفض ولدى عائلة".

فقال الكابتن: -"وهل لك، يا سيدتي، أن تقدمي لكل واحد من صغار العائلة ثمانية عشر بنسًا".

فحضرت عائلة "ماك ستنجر" ذات العدد الكبير ومكثت حتى صرفهم الكابتن في أسف. وفي سكون الليل، وضع ممتلكاته الثقيلة في صندوق وقفله. وكان ينوي أن يتركه هناك، وربما إلى الأبد، إلا إذا استطاع أن يجد يومًا رجلًا من الشجاعة لدرجة أنه يستطيع أن يذهب ويطلبها. وفي منتصف الليل هرب الكابتن.

ولا نستطيع أن نقص ما قاساه الكابتن في اليوم التالي عندما تمر سيدة مرتدية قبعة، أو غالبًا ما يندفع خارجًا من الدكان ليتحاشى من تخيلها "ماك ستنجر".

ومع ذلك فقد وجد "كابتن كتل" وقتًا في وسط كل هذا ليشرف على الدكان، ويعمل تحسينات قليلة.

الفصل السادس عشر

اديث المتكبرة

كان النهار قد انتصف عندما وصل الضابط إلى حجرة "مسز سكيتون" ووجدها جالسة كالمعتاد على الكنبة تشرب فنجانًا من القهوة.

فقالت: – "اجلس، إنها مسافة طويلة، لا تقترب مني، لأني ضعيفة جدًا هذا الصباح.

ثم سألته "مسز سكيتون "عن حال صديقه.

فأجاب الضابط: –"إن حالي "دمبى"، يا سيدتي، حسنًا كأي رجل في حالته يكون؛ فإن حالته يائسة، يا سيدتي، فإنه واقع في غرام".

فقالت مسز سكيتون: "لا أستطيع أن أفهم ما تعنيه، هناك تلميح "لاديث" في كلماتك، هل تظن أنه جاد، يا عزيزي الضابط، هل تنصح بأن تتحدث إليه، أو نتركه وحيدًا؟"

فضحك الضابط بصوت أجش قائلًا: "هل نزوجه إلى "أديث جرانجر" يا سيدتي؟"..

فسألته: –"كيف نستطيع أن نزوجه؟.."

فقال الضابط: –"إن "دمبي" يا سيدتي لقطة عظيمة، وإن "دمبى" يا سيدتي جاد في الأمر اتركي "دمبي" وشأنه، يا سيدتي افعلي كما فعلت من

قبل، ولا تفعلي أكثر من ذلك، واعتمدي على جوزيف باجستوك للنهاية.

فقالت مسز سكيتون: "هل تظن حقيقة هذا، يا عزيزي الضابط؟"

فأجاب الضابط: –"إني واثق من هذا، يا سيدتي. فإن "مسز سكيتون" الجميلة باجستوك" سوف يتحدثان غالبًا عن هذا بانتصار عندما يتقاسمان ثروة منزل "اديث دمبى".

توقف الضابط فجأة في ضحكه، ثم صار رزينا وقال: "لقد وصل "مستر كاركر" يد "دمبى" اليمني، يا سيدتي.

فقالت مسز سكيتون: "هذا الصباح؟"

فأجاب الضابط: "هذا الصباح، إن "مستر دمبي" يرغب أن يبحث له "مستر كاركر" "كل ما يتعلق بأديث بدون أن يخبره بنفسه أي شيء لأن دمبي متكبر، يا سيدتي مثل الشيطان".

فقالت مسز سكيتون: "إنها صفة جذابة، إنها تذكرني بعزيزتي " أديث"، أسكت! إنها هنا!"

إن "اديث" جميلة ولكنها باردة، ولقد دخلت وجلست عند نافذة تتطلع إلى الخارج.

قالت "مسز سكيتون" بعد رحيل الضابط: "عزيزتي اديث، فأجابت، بدون أن تدير رأسها: "لقد قلت إنك مشغولة فمكثت بعيدًا."

ارتسم على وجهها الجميل الاحتقار الهادئ.

قالت مسز سكيتون: "يا فتاتي العزيزة" فقالت اديث بابتسامة: –"ألم

أصبح سيدة بعد؟

- "كم تبدين غريبة اليوم، يا عزيزتي! لقد أحضر لك الضابط باجستوك أرق خطاب من "مستر دمبى" يقترح فيه أن نتناول معه طعام الإفطار غدًا ثم نذهب إلى "وروك" و "كينلورث" هل ستذهبين، يا أديث؟"

فكررت وقد احمر وجهها وأخذت تتنفس بسرعة وهي تنظر حولها نحو أمها: -"هل سأذهب!"

فقالت الأم بدون مبالاة: "أعرف أنك سوف تذهبين، يا عزيزتي".

هذا هو خطاب "مستر دمبى" يا "أديث"

فكانت إجابتها: -"أشكرك، ليست لدي رغبة في قراءته."

فقالت مسز سكيتون: "إذن ربما من الأفضل أن أجيب عليه بنفسي".

وفي المساء التالي بعد الرحلة مع "مستر دمبى" والضابط و "مستر كاركر" تركا السيدتين وحيدتين.

رقدت "مسز سكيتون" على الكنبة، وجلست "أديث" بعيدًا الى قيثارتها في سكون.

وأخيرًا قالت "مسز سكيتون" بحدة: "لماذا لم تخبريني أنه سيأتي هنا غدًا حسب موعد؟".. فأجابت أديث: "لأنك تعلمين ذلك، يا والدتي"

وأكدت الكلمة الأخيرة بطريقة ساخرة، ثم استطردت قائلة: " أنت تعلمين أنه قد اشتراني، أو أنه سوف يشتريني غداً، وقد فكر في صفقته، وأراها لصديقه، بل أنه حتى فخورًا بها! فهو يظن أنها تلائمه، وأنه اشتراها

بثمن رخيص، فيا الله، لقد عشت لهذا!"

فأجابت الأم الغاضبة: -"ماذا تقصدين؟ منذ أن كنت طفلة، ألم ..."

فقالت أديث وهي تنظر إليها: "طفلة! متى كنت طفلة! أي طفولة تركتها لي؟ التي كنت امرأة ماكرة مدبرة محتالة، تضع الفخاخ لتتصيد الرجال.. قبل أن أعرف نفسي أو أعرفك"

وضربت بيدها على صدرها كما لو كانت تسحق نفسها.

ثم قالت: "انظري إلي، يا من لم تعرف ما هو القلب والحب الصادق. لقد تزوجت في شبابي شخصًا ليس لدي نحوه أي عاطفة وإنما عدم مبالاة. انظري إلي، عشر سنوات منذ وفاته؟"

فأجابت الأم: "لقد كنا نبذل جهدنا للحصول على زوج غني، هذه كانت حياتك. كان من الممكن أن تتزوجي عشرين مرة على الأقل، يا أديث إذا شجعتيهم بطريقة كافية".

فقالت أديث: - "إني احتقر نفسي، كل ما يمكنني أن أقوله هو أنني لم أجذب هذا الرجل"

فقالت أمها: "هذا الرجل! إنك تتكلمين كما لو كنت تكرهينه".

فقالت أديث وقد ثبتت عينيها على أمها: "هل أخبرك من يعرفنا بالفعل تمامًا، وأمام من كنت أقل احترامًا لنفسي وثقة عما كنت أمام داخلية نفسي؟"

فأجابت الأم ببرود: "أعتقد أن هذا هجوم على الرجل المسكين سيئ

الحظ، ما اسمه.. مستر كاركر؟"

فوضعت "أديث" يدها على وجهها، وارتجف كل جسمها.

الفصل السابع عشر

تغييرات في المنزل

بينما كان مستر "دمبى" في ليمنجتون، مكثت "فلورنس" مع الأصدقاء.

وعند عودتها إلى المنزل، أخبروها أن والدها يرغب في التحدث لإليها. فأسرعت "فلورنس" إلى الطابق الأسفل وهي شاحبة ومضطربة. وتساءلت أثناء نزولها إلى أسفل إذا كانت ستجرؤ وتقبله، قلبها إليه ساعدها على أن تقرر، وظنت أنها سوف تقبله.

ولكنه لم يكن بمفرده، فقد كانت هناك سيدتين، فتوقفت "فلورنس"

وقال والدها وهو يمد يده بشدة لدرجة أنه أوقفها على مسافة: "فلورنس" كيف حالك؟"

فتناولت "فلورنس" اليد بين يديها ووضعتها في خجل على شفتيها، ولكن اليد، سحبت، ولمست الباب فأقفلته بعاطفة مثل تلك التي لمست بها "فلورنس".

قال مستر دمبى: أديث، هذه ابنتي "فلورنس"، "فلورنس" هذه السيدة سوف تكون عن قريب والدتك"

فصاحت: "أتمنى لك السعادة؟ يا بابا! أتمنى لك السعادة طول

حياتك! "ثم سقطت باكية على صدر السيدة. فضمت السيدة الجميلة "فلورنس" إلى صدرها، وأحنت رأسها وقبلتها على وجنتها.

قال مستر دمبى: -"هل سنقوم بجولة خلال الحجرات، ونرى كيف يعمل العمال؟" وقدم ذراعه "لمسز سكيتون" وهما يخرجان من الغرفة.

وقالت أديث بسرعة: "فلورنس" إنك سوف لا تبدئي بكراهيتي؟

فصاحت فلورنس: -"بكراهيتك، يا ماما" ووضعت ذراعها حول رقبتها.

فقالت السيدة الجميلة: -"ابدئي بالتفكير في طريقة حسنة، وابدئي باعتقادك أنني سوف أحاول أن أجعلك سعيدة، وأنني مستعدة أن أحبك، إلى اللقاء يا "فلورنس"، سوف نتقابل مرة ثانية قريبًا"

ومرة ثانية ضمت "فلورنس، إلى صدرها ثم تركتها لتنضم الى الأخرين.

وبدأت "فلورنس" الآن تأمل أن تتعلم من الأم الجديدة الجميلة كيف تنال محبة والدها.

الفصل الثامن عشر

قبل الزواج

كانت "فلورنس" جالسة ذات يوم في غرفتها تفكر في السيدة عندما رفعت عينيها فرأتها واقفة عند الباب.

فصاحت فلورنس بفرح: – "ماما!"

فقالت السيدة بابتسامة جدية وهي تضع ذراعها حول رقبة فلورنس: " لست بأمك بعد."

فصاحت فلورنس: –"ولكنك ستكونين عما قريب"

–"قريبا جدًا، الآن يا فلورنس! قريبًا جدًا. هل كنت بمفردك منذ كنت هنا مؤخرًا؟"

فقالت فلورنس: –"أنا.. أنا.. اعتدت أن أكون بمفردي لا أهتم بذلك مطلقًا وجلست "اديث" موجهة نظرها إليها بعينيها البراقتين مثبتتين على وجهها. وفكرت فلورنس في مقدار اختلاف جمال هذه السيدة عن الذي قدرته، فقد ظنت أنه من النوع المتكبر، ومع ذلك فإن سلوكها كان هادئًا ورقيقًا يدعو إلى الثقة.

وعندما تحدثتا بعض الوقت، أخبرت "فلورنس" أنها حضرت لتأخذها إلى منزلها.

قالت أديث: -"سوف تمكسين معنا حتى أتزوج، فأنني أرغب في أن يعرف ويثق كل منا بالأخر، يا فلورنس."

فقالت فلورنس: -"إنك شفوقة جدًا على، يا أمي العزيزة."

فاستطردت "أديث" وهي تنظر حولها لترى أنهما بمفردهما تمامًا وكانت تتكلم في صوت منخفض: -"دعيني أقول الآن، لأنه ربما يكون هذه أحسن الفرص، ذلك أنه عندما أتزوج وأذهب بعيدًا لبضعة أسابيع، سأكون مستريحة البال إذا أتيت هنا إلى المنزل، ولا يهم من يدعوك للبقاء فتعالى هنا إلى المنزل. إني أعرف جيدًا أنك أحسن في هذا المنزل، يا عزيزتي فلورنس".

-"سوف أحضر في نفس اليوم، يا ماما".

فقالت أديث: -"سوف أعتمد على ذلك الوعد، والآن استعدى لتأتي معي، يا فتاتي العزيزة."

قالت مسز سكيتون عند دخول ابنتها وفلورانس: "كيف حال عزيزتي فلورنس؟ يجب أن تأتي وتقبليني."

فذهبت "فلورنس" وقبلتها.

قالت مسز سكيتون: "لا بد أنك سمعت، بلا شك، يا عزيزتي المدللة، أن والدك الذي نحبه جميعًا، سوف يتزوج عزيزتي "أديث" بعد أسبوع من اليوم."

فأجابت فلورنس: -"أعرف أن ذلك سوف يكون قريبًا جدًا، ولكن

لست أعرف متى بالضبط."

فقالت أمها بمرح: "هل من الممكن أنك لم تخبري "فلورنس"

يا عزيزتي أديث؟": فتساءلت فجأة وبشدة لدرجة أن فلورنس لم تصدق أن هذا هو نفس الصوت: -"ولماذا أخبر فلورنس؟"

وعندئذ أخبرت "مسز سكيتون" فلورنس أن والدها سوف يأتي لتناول الغذاء، فاضطربت فلورنس لسماع ذلك، وكلما اقترب الوقت، كلما صعب تنفسها. ولم تجرؤ أن تذهب إلى النافذة خشية أن يراها من الشارع، ولم تجرؤ أن تصعد الى الطابق العلوي لتخفى عاطفتها، خشية أن تقابله دون توقع أثناء مرورها من الباب.

صاحت فلورنس بانزعاج: "اسمعه الآن! إنه قادم!". لقد حرك صوت مستر دمبى الغريب طفلته كثيرًا، فهرعت إليه، ووضعت يديها حول رقبته، وقبلت وجهه، ثم أسرعت خارج الغرفة.

قالت مسز سكيتون: "هل ترتيباتك على وشك الانتهاء أخيرًا يا عزيزي دمبى؟ حتى ترتيبات المحامين؟ فأجاب مستر دمبي:

-"نعم، يا سيدتي، لقد أخبرني المحامين أن تغيير العقود جاهز الآن، وما على "أديث" إلا أن تتكرم باقتراح الوقت الذي يناسبها لتنهي المسألة."

جلست "أديث" كتمثال جميل بارد صامت وساكت. فقالت وهي لا تكاد تنظر الى مستر دمبى: "ليس لدي ما اقترحه، سوف يكون ذلك عندما ترغب، فليس لدي مواعيد."

فقالت أمها: "ليس لديك مواعيد، يا عزيزتي أديث! أن لديك ألف ميعاد وميعاد مع جميع أنواع أصحاب المحلات!"

فأجابت أديث: "إنها من صنعك. أنت و "مستر دمبي" تستطيعان أن ترتبا ذلك فيما بينكما."

وما كان "مستر دمبي" ليعارض سلوك زوجته المقبلة، فقد استمتع بفكرة أن هذه المرأة المتكبرة سوف تكون مسلية له، وسوف تكون باردة بالنسبة لضيوفه بنفس الطريقة التي يتبعها.

ومر الأسبوع سريعًا، وفيه ذهبوا إلى صانعي قبعات السيدات والخياطين، والجواهرجية، والمحامين، وبائعي الزهور، وصانعي الحلوى، وكانت "فلورنس" واحدة من هذه الجماعة.

وكان على "فلورنس" أن تحضر الزفاف، وكان على "فلورنس" أن تخلع ملابس الحداد، وترتدي فستان جميلًا لهذه المناسبة.

ولم تنظر أديث إلى أي شيء، ولم تهتم بأي شيء، وفي آخر ليلة من الأسبوع، قالت "مسز سكيتون" لمستر دمبي: "يا عزيزي دمبي" سوف تترك لي "فلورنس" عندما تأخذ مني حبيبتي اديث".

فقال "مستر دمبي" إنه سوف يفعل ذلك بكل سرور. فأدارت "أديث" رأسها فجأة، وتغير عدم اهتمامها في لحظة إلى اهتمام طاغ، وأصغت بانتباه إلى حديثهما.

وعندما أصبحنا وحيدتين، تحركت "اديث" من النافذة للمرة الأولى في ذلك المساء، واتجهت إلى والدتها.

ثم قالت أديث: "أصغي إلى، يا والدتي، يجب أن تمكثي هنا بمفردك حتى أعود، وإلا سوف أقسم أنني سأرفض أن أتزوج هذا الرجل في الكنيسة"

فأجابت الأم بنظرة انزعاج سريعة..

فقالت اديث بثبات: – إن هذا يكفي فقد وصلنا إلى ما نحن فيه أني لا أسمح لمخلوقة بريئة أن تتلف لكي تسلي وقت فراغ أم. إنك تفهمين ماذا أعني "أن "فلورنس" يجب أن تذهب إلى بيتها"

فصاحت الأم الغاضبة: –"إنك بلهاء، يا اديث هل تتوقعين سلام لك في ذلك البيت إلا بعد أن تتزوج أو تذهب بعيدًا؟

فقالت ابنتها: "هل تسأليني، أو تسألين نفسك، إذا كنت سأتوقع سلامًا في ذلك البيت. وأنت تعرفين الإجابة.

لقسد قلت إن "فلورنس" يجب أن تذهب إلى بيتها"

فصاحت الأم: دعيها تذهب. فما أهمية الفتاة لي؟"

فقالت أديث: "أنها شيء كثير بالنسبة لي لن تتلف بالدروس التي تعلمتها، إذا استطعت أن أمنع ذلك، سيري في طريقك الخاص، يا أمي، تقاسمي كما يعجبك ما حصلت عليه، أنفقيه، وتمتعي به، وكوني سعيدة كما تودين. فقد كسبنا مادة حياتنا.

إني أسامحك على الدور الذي قمت به في شرور الغد، أرجو أن يسامحني الله على الدور الذي قمت به"

وتمنت لامها ليلة طيبة ثم ذهبت الى غرفتها الخاصة، ولكن لم يكن هناك راحة لروحها المتضايقة. ففي ساعة متأخرة من الليل فكرت "أديث جرانجر" في زواجها، وعدم صداقتها، وسكونها، وكبريائها، وعدم شكواها.

وأخيرًا حدث أن لمست الباب المفتوح الذي يؤدي إلى الحجرة التي تنام فيها "فلورنس" في شبابها وجمالها.

شعرت "أديث" بأنها منجذبة نحوها، فأخذت تقترب، وهطلت دموعها وهي تجثو على ركبتيها، ووضعت رأسها المتعبة على الوسادة بجانب الفتاة النائمة. وهكذا أمضت "اديث جوا نجور" ليلة قبل الزفاف.

الفصل التاسع عشر

الزفاف

وفي هذا الصباح عند باب الكنيسة، كانوا ينظفون السجادة والوسائد ويتحدثون عن الزفاف. أما في منزل "مستر دمبى"، في نفس الوقت، فقد كانت هناك حركة عظيمة.

ترك "مستر دمبى" غرفة الملابس وسار إلى غرفة الاستقبال...

وكان معطف "مستر دمبى" الجديد الأزرق فاخرًا، وبنطلون بني فاتح وصديري أبيض..

طرقة مضاعفة أعلنت وصول الضابط، وكان يرتدي ملابسًا فاخرة أيضاً.

ذهب "مستر دمبى" و "الضابط باجستوك" و"مستر كاركر" في عربة إلى الكنيسة معًا. ثم كان هناك ازدحام عند الباب وتدخل العروس بخطوات متكبرة، وليس على وجهها علامة ماقته في الليلة الماضية. فقد وقفت هادئة معتدلة وجميلة. ووقعت العروس باسمها في السجل، فأتي كل واحد ليهنئها وأخذوا يزغردون خلال الطرقات.

وتنزل "مس توكس" من أعلى الكنيسية ببطء، وقد احمرت عيناها وتبلل منديلها، وعند التفكير في "مستر دمبى" كانت "مس توكس" تبكي ثانية في طريقها إلى المنزل.

وغادر "مستر توتس" الصديق القديم البول الصغير في المدرسة، الكنيسة وقد وقع بجنون في حب "فلورنس".

ووصلت الآن العربات إلى منزل العروس، فانهالت التهاني في أسعد أيام حياتها، ولقد سرت "مسز شيك" لأن أديث بالطبيعة، صورة تامة لدمبي.

وبعد أن تناول الجميع طعام الإفطار؛ نهضت ابنة العم "فينكس" وألقت خطابًا تصيرًا قوبل بتصفيق عظيم. وحينئذ نهضت "اديث" لتغير ملابسها بملابس السفر. وعندما ظهرت مرة ثانية هرعت " فلورنس" إليها لتودعها. وبتلويحه من يدها، مرت "أديث" سريعًا ورحلت.

يخيم الليل، وتجلس "فلورنس" لتقرأ: ولكنها لا تستطيع القراءة في تلك الليلة، فتقفل الكتاب ولا تستطيع أن تراه بوضوح الآن هناك ضباب أمام عينيها، ويلمع في هذا الضباب شقيقها الراحل وأمها الراحلة مثل ملائكة.

ولتر أيضاً، ذلك الولد المتجول المسكين، أوه؛ أين هو؟

الفصل العشرون

أخبار عن حطام السفينة

كان "كابتن كتل" يعتقد أن سلامته الحالية مدهشة لأنها استمرت مدة طويلة، فإنه يعرف جيدًا الشخصية العنيدة لمسز "ماك ستنجر" لدرجة أنه واثق من أن تلك المرأة ذات العقلية القوية سوف تكرس نفسها لعملية اكتشافه واعتقاله ولهذا عاش "كابتن كتل" حياة هادئة جدًا ولا يكاد يخرج إلا بعد الظلام.

ولم يتخيل الكابتن أبدًا أنه إذا أمسكت به مسز "ماك ستنجر" أن يستطيع أن يقاوم ولكن بدت أشياء أخرى تضايق الكابتن، فلم يسمع بعد عن سفينة "ولتر، ولم تأت أخبار من صول جيلز "العجوز، وحتى " فلورنس" لم تعرف باختفاء الرجل العجوز، ولم يطاوع "كابتن كتل" قلبه في أن يخبرها.

وفي ذات مساء خريف بارد ومظلم، وقد أمر الكابتن بإيقاد المدفأة في حجرة الجلوس الخلفية، وكانت الأمطار تهطل بغزارة والرياح تهب في قوة.

وبينما كان الكابتن يقف وعلى وجهه ابتسامة غير سعيدة، يفكر في "ولتر"، سمع طرقة على باب الدكان؛ ففتحها ليجد شابًا واقفًا هناك.

قال الزائر: -"كيف حالك، يا مستر جيلز؟"

وكانت التحتية موجهة إلى الكابتن. ثم استطرد الزائر ليقول في نفس

واحد: "أشكرك" إني في صحة جيدة حقًا، أشكرك، اسمي "توتس.. مستر توتس"

ثم ابتدأ مستر توتس يقول ثانية: -"مستر جيلز.."

فقال الكابتن: -"اسمي كتل" فقال مستر توتس: "أوه! ألا أستطيع أن أرى مستر جيلز هل أستطيع؟ لأني..."

فقال الكابتن: -"إنك لا تستطيع أن ترى صول جيلز لأنه ليس هنا، لست أدري أين ذهب، أو لماذا ذهب".

فابتدأ مستر توتس يقول: -"ولكن يا إلهي، إن مس دمبي لا تعرف..."

فقال الكابتن وهو يخفض صوته: "لماذا، إني أسألك كقلب يشعر: لماذا يجب أن تعرف؟ هل أتيت إلى هنا من طرف مس دمبي؟"

فضحك مستر توتس: "يجب أن أظن، أنت تعرف، أني أذهب وأزور "مس دمبى" في بعض الأحيان، ولقد قمت بزيارتها اليوم بعد الظهر؛ وبينما كنت خارجًا أطلعتني "سوزان" على هذه الجريدة، وأخبرتني أنها قد احتفظت بها من "مس دمبى" بسبب شيء فيها عن شخص عرفته هي و "مس دمبى" هل أقرؤها لك؟"

فأومأ الكابتن برأسه، فقرأ "مستر توتس" ما يلي من أخبار السفن:

"سوثهامبتون" السفينة" دفيانس" تحت قيادة "هنري جيمس" التي وصلت إلى هذا الميناء اليوم، أبلغت أن المراقب قد رأي قبل غروب

الشمس بنصف ساعة، بعض قطع من حطام سفينة طافيًا على بعد حوالي ميلًا، فأرسلت السفينة " دفيانس" قاربًا صغيرًا ليفحص ما بقي من الحطام، واكتشف جزء من مؤخرة السفينة، وكانت عليه الكلمات والحروف الآتية -"الابن والوريث". وكان من السهل قراءتها. لم يروا أية علامة تدل على جثة فوق بقايا الحطام. فلم يعد هناك شك في السفينة المفقودة "الأبن والوريث" المتجهة إلى "باربادوس" قد تحطمت في الأعاصير الماضية، وأن كل واحد على ظهرها قد هلك.

فقال الكابتن: -"وداعا يا ولتر أيها الصبي العزيز، لقد أحببتك، وبالرغم من أنه ليس من لحمي ودمي؛ فقد كنت أشعر نحوه بشيء مما يشعر الأب عندما يفقد ابنًا هكذا كنت أشعر عند فقد "ولتر". أخبر السيدة الشابة أنه قد انتهى الأمر، انتهى!"

فقال مستر توتس: -"أوه! أؤكد لك، إنني في الحقيقة شديد الأسف. هل تظن أن "مس دمبى" ستتأثر كثيرًا يا كابتن جيلز.. أعني يا مستر كتل؟"

فأجاب الكابتن: -"لماذا، ليباركك الله. عندما لم تكن أكبر من هذا: كانا مغرمين أحدهما بالآخر كيمامتين صغيرتين".

قال مستر توتس وقد بدا عليه الشقاء: "هل كانا حقيقة؟"

فقال الكابتن في حزن: -"لقد خلقا أحدهما للآخر، ولكن ماذا يهم الآن؟"

الفصل الحادي والعشرون

الزوجين السعيدين

تلألأت الأنوار في النوافذ هذا المساء، وسطح الوهج الأحمر للمدفأة فوق الستائر والسجاجيد الملساء؛ وكان العشاء معدًا لأن يقدم وقد نظمت مائدة العشاء بطريقة جميلة بالرغم من أنها لأربعة أشخاص فقط. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرتب فيها المنزل لأصحابه منذ التغييرات الحديثة التي طرأت عليه فقد كانوا يتوقعون الزوجين السعيدين في كل لحظة.

لقد وصلوا هنا أخيرًا! فقد وقفت عربة أمام الباب، ونزل. "مستر دمبى" وعروسه ثم دخلا المنزل.

صاح صوت من على السلم: -"عزيزتي أديث! "عزيزى دمبي!، وألقت مسز سكيتون ذراعيها حول الزوجين السعيدين كل في دوره.

ونزلت " فلورنس" إلى الصالة أيضاً، ولكنها لم تتقدم، فرأتها "أديث" وأسرعت لتقبلها.

قال مستر دمبي وهو يمد يده: "كيف حالك، يا فلورنس؟"

وبينما كانت ترفع يده الى شفتيها وهي ترتعش، قابلت نظرته وبالرغم من أن النظرة كانت باردة ولكنها جعلتها تظن أنها رأت فيها اهتمامًا أكثر مما أبداه من قبل. ولم تجرؤ أن ترفع عينيها إلى عينيه أكثر من ذلك، ولكنها

شعرت أنه نظر إليها مرة ثانية ليس أقل موافقة.

قالت "مسز سكيتون": "لقد جعلوا من المنزل قصرًا كاملاً يا عزيزي دمبي"

فقال مستر دمبي وهو ينظر حوله: –"إنه جميل، اعتقد أن كل ما يمكن عمله بالنقود قد تم".

فقالت مس سيكتوون: – "وماذا لا تستطيع النقود أن تفعل، يا عزيزي دمبي!"

فقال مستر دمبي: "إنها قوية، يا سيدتي" ونظر تجاه زوجته، لكنها لم تقل كلمة.

أعلن عن العشاء، فسارت "أديث" بجانب الذهب والفضة التي في دولاب الفضيات كما لو كانت كومة قاذورات، ولم تنظر حتى إلى الأشياء الجميلة التي حولها. وأخذت مكانها في مائدته للمرة الأولي وجلست مثل تمثال في وليمة.

ولما كان "مستر دمبي" نفسه مثل التمثال، فقد سر لأنه رأى زوجته الجميلة لا تتحرك ومتكبرة وباردة.

وبعد تناول الشاي، ذهبت "مسز سكيتون" إلى الفراش، وغادرت "أديث " الحجرة أيضًا في صمت ولم تعد بعد ذلك وعندما دخلت "فلورنس" غرفة الاستقبال لم تجد هناك أي واحد ما عدا والدها الذي كان يسير جيئةً وذهابًا.

قالت فلورنس مرددة عند الباب:– "أستسمحك عذرًا، هل أذهب، يا بابا؟"

فأجاب مستر دمبي:– " كلا، تستطيعين أن تأتي هنا وتخرجي يا فلورنس، كما تودين. فهذه ليست غرفتي الخاصة".

فدخلت "فلورنس" وجلست إلى منضدة على مسافة قليلة، فوجدت نفسها للمرة الأولى في حياتها وحيدة مع والدها وبعد أن سار جيئةً وذهابًا لفترة من الزمن، ذهب "مستر دمبي" وجلس في ركن منزوي؛ وغطى رأسه بمنديل، وتهيأ للنوم.

كان يكفي "فلورنس" أن تجلس هناك تراقبه، وتدير عنها تجاه مقعده من وقت لأخر كانت سعيدة جدًا أن تفكر أنه يستطيع النوم بينما تكون هناك، وأنه لم يعد قلقًا بوجودها الغريب الذي منع مدة طويلة.

ماذا تكون أفكارها إذا عرفت أنه يراقبها بعناية، وأن المنديل الذي على وجهه، ترك نظره حرًا وأنه لم يتحول بعيدًا عن وجهها لحظة وأنه في الوقت الذي نظر فيه إليها، لم تبدو له لديه قوة لكي يدير عينيه بعيدًا.

هناك لحظات من الرقة في حياة أقسى وأشد الرجال، وأن منظر "فلورنس" في جمالها، وقد تحولت تقريبًا إلى سيدة بدون علمه؛ ربما قد انتتجت مثل هذه اللحظات حتى في حياته المتكبرة. وكلما نظر إليها كلما رق قلبه لها. لقد أصبحت مزيجًا من الطفل الذي أحبه، وأصبح من الصعب أن يستطيع التمييز بين الاثنين، وشعر برغبة في أن يتحدث إليها، ويستدعيها إليه. كانت الكلمات: "تعالى هنا" يا فلورنس!" ترتفع إلى

شفتيه. ولكن ببطء وبصعوبة فقد كانت غريبة جدًا– عندما منعتها وقع أقدام على السلم.

كانت زوجته، فقد غيرت ملابس العشاء بملابس فضفاضة؛ وقد تركت شعرها مسترسلًا: ولكن لم يكن هذا التغيير هو الذي أدهشه.

فقد قالت:– "عزيزتي فلورنس، لقد كنت ابحث عنك في كل مكان".

وعندما جلست بجانب "فلورنس"، لم يعرف "مستر دمبي" زوجته إلا بصعوبة: فقد تغيرت؛ فلم تكن ابتسامتها فقط الجديدة بالنسبة إليه.. بالرغم من أنه لم يرها أبدًا، ولكن سلوكها، ولهجتها؛ والرغبة في أن ترضى.. لم تكن هذه "أديث ".

– "بصوت منخفض، يا أمي العزيزة فإن بابا نائم".

إنها "اديث" الإن، فعندما نظرت إلى الركن الذي جلس فيه عرف الوجه والسلوك جيدًا.

– "لم أفكر أبدًا أن تكوني هنا، يا فلورنس. تعالى يا عزيزتي!

فقالت فلورنس مترددة:– "أظن أن بابا لن يتوقع أن يجدني، عندما يستيقظ •

فقالت اديث:– "هل تظنين أنه سوف يتوقع وجودك يا فلورنس؟".

فخفضت "فلورنس" رأسها، ثم نهضت، ووضعت "اديث" يدها في ذراعها، خرجًا من الغرفة مثل شقيقتين؛ في راي مستر دمبي.

وجلس في ركنه المنزوي مدة طويلة حتى دقت الساعة الثالثة قبل أن

يتحرك تلك الليلة. وطوال هذا الوقت كان يحملق الى المكان الذي كانت تجلسي في "فلورنس". واشتد ظلام الحجرة، ولكن الظلام خيم على وجهه أكثر ظلمة من ظلام الليل.

الفصل الثاني والعشرون

تدشين المنزل

رتب "مستر دمبي" و"مستر سكيتون" عددًا من الحفلات احتفالًا بالزواج وللتعرف بأعضاء المجتمع. وقدم "مستر دمبي" كشفًا بأسماء رجال الأعمال البارزين الذين سوف يدعون لتناول العشاء، وقدمت "مسز سيكيتون" كشفًا آخرًا بالنيابة عن ابنتها التي لم تبد أي اهتمام بالموضوع. ارتدي "مستر دمبي" رباط عنق، ومبار بقلق في أنحاء غرفة الاستقبال حتى الساعة المحددة لتناول العشاء. وصل أولًا مدير شركة هامة ذات ثروة عظيمة فاستقبله "مستر دمبي" بمفرده ثم وصل بعده مدير بنك، يقال إنه قادر على شراء أي شيء.

وظهرت الآن "مسز دمبي" جميلة ومتكبرة، وكان معها "فلورنس"، وازداد سريعًا عدد الحاضرين فوصل مديرين ورؤساء والضابط "باجستوك" وأصدقاء لمسز سكيتون.

ولأن "فلورنس" جلست وحيدة، فقد شعرت بالدور الصغير الذي لعبه والدها فيما يحدث، ورأته في ألم أنه يبدو غير مستريح البال...

استقبلت "مسز دمبى" زواره في برود متكبر، ولم تظهر أي اهتمام أو رغبة لتسرهم، ولم تنبس ببنت شفة بعد استقبالهم.

وأخيرًا، رحل جميع الضيوف، ولم يوجد في الغرفة ألا "مستر دمبى" و

"مستر كاركر" الذين كانا يتحدثان سويًا، ومسز دمبى وأمها.

وتقدم "مستر كاركر" في تواضع ليستأذن الرحيل.

قال "أرجو ألا يكون تعب هذا المساء السار سوف يتعب مسز دمبي غدًا".

فقال مستر دمبي: "لقد وفرت مسز دمبي على نفسها التعب ويؤسفني أن أقول إنني كنت أتمنى يا مسز دمبي، أن تتعبي نفسك قليلًا أكثر في هذه المناسبة.

فنظرت إليه بكبرياء، وأدارت عينيها بعيدًا دون أن تتكلم فقال مستر دمبي:– "أني آسف يا سيدتي، أنك لم تفكري أنه من واجبك أن تستقبلي أصدقائي باحترام أكثر، وإن ما يشرفك "يا مسز دبي" هو زيارة بعض من أهملتهم هذه الليلة".

فأجابت وقد نظرت إليه بثبات؛ "هل تعرف أن هناك شخصًا ما هنا؟".

فصاح مستر دمبي: "لا! كاركر! أرجوك ألا ترحل، إن "مستر كاركر»، يا سيدتي، كما تعرفين يحوز على ثقتي.

فقال مستر كاركر "يجب أن أرجوك في أن تمسح لي بالانصراف."

فقال مستر دمبي بطريقة أكثر رزانة:– "لقد بينت لمسز دمبى بما لا أوافق عليه في سلوكها، وما أتوقع أن يصحح ثم هز رأسه كاركر: مساء الخير يا كاركر!".

ولم تتكلم زوجته كلمة واحدة، وإنما حملقت فيه، ثم باحتقار عظيم خفضت عينيها كما لو كان لا يستحق أن تتحدث إليه.

هل كان في الظلام مصادفة، لأنه بعد ذلك ساعة رآها قادمة ومعها ضوء من الغرفة التي تنام فيها فلورنس، ولاحظ مرة ثانية وجهها وقد تغير، بينما ليست له القدرة على تغييره؟

الفصل الثالث والعشرون

مسز ماك ستنجو تجد كابتن كتل

كان "كابتن كتل" يجلس مع صديقه مستر "بنسبي" يناقش وصية "صول جيلز" العجوز التي فتحها الآن بعد مرور السنة التي ذكرها، عندما حدث شيئًا. كان شيئًا مخيفًا حتى أنه لو لم يساعده حضور "بنسبي " لاعتبر مفقودًا من تلك الساعة المخيفة.

كيف قفل الكابتن الباب فقط، ولم يغلقه بالمفتاح، سيظل أحد الأسئلة التي سوف تبقى إلى الأبد سرًا غامضًا، ولكن من خلال الباب غير المغلق اندفعت مسز "ماك ستنجر بسرعة لدرجة أن الكابتن كتل وجد نفسه جالسًا ينظر إليها، قبل أن يتغير وجهه الهادئ إلى وجه يرتسم عليه الرعب والفزع.

ولكن في اللحظة التي أدرك فيها "كابتن كتل" درجة سوء حظه.. اندفع إلى السلالم غير مبال بأي ضرر يحدث له، ولم يبحث إلا في إخفاء نفسه تحت سطح الأرض.

قالت مسز "ماك ستنجر" وهي توقفه:-" أوه، كابتن كتل كابتن كتل، هل تجرؤ وتنظر في وجهي. ولا تقع على الأرض!".

وكان يبدو على الكابتن أي شيء إلا الجرأة، فقال في ضعف- "استعدى!".

فقالت مسز ماك ستنجر:-"أوه، لقد كنت ضعيفة وغبية لأثق فيك عندما أويتك تحت سقفي، يا كابتن كتل، وليس هناك أي شخص في شارعنا لا يعرف أنني فقدت نقودًا بسبب هذا الرجل ونهمه!".

ثم توقفت لتأخذ نفسها.

وصاحت مسز مالك ستنجر:- "ثم هرب، وظل مختفيًا أثني عشر شهرًا! أني أريد أن أعرف إذا كنت ستتعود إلى المنزل، يا كابتن كتل؟" وبدا أن الكابتن مستعدًا تمامًا للذهاب، ولكن اقترح في ضعف شيئًا مثل "لا تفعلي مثل هذه الضجة بشأن ذلك".

وقال مستر بنسبي في صوت هادئ:- "نعم، نعم، نعم ارحلي يا فتاتي أرحلي". فتساءلت مسز ماك ستنجر في كبرياء:- "ومن تكون أنت، من فضلك؟"

رأي الكابتن وهو غير قادر على الكلام، مستر "بنسبي" يقنع تدريجيًا هذه السيدة العنيدة بالدخول إلى الدكان، وعاد ليأخذ إليها روم وماء ويحاول تهدئتها دون أن يبدو أنه يقول كلمة واحدة ثم ظهر بنسبي وقد أرتدي معطفه وقال:- "كتل، إنني ذاهب لأوصلها في سلام الى المنزل".

ومر وقت ولم تظهر "بنسبي" فابتدأ الشك يساور الكابتن وتساءل إذا كان "ينسى" قد أخذ رهينة حتى يسلم نفسه، وفي هذه الحالة يجب على الكابتن، كرجل شريف، أن يطلق سراح "بنسبي" بالتضحية بحريته. وظل يفكر "كابتن كتل" في كل هذا حتى تعب، ولكن لم يظهر "بنسبي" وأخيرًا عندما فقد الكابتن الأمل وابتدأ في خلع ملابسة سمع صوت عجلات

يقترب، وتبع هذا تحية من "بنسبي".

وارتجف الكابتن عندما ظن أنه لم يتخلص من مسز "ماك ستنجر" وأنها رجعت في العربة.

ولكن لم يكن مع "مستر بنسبي" إلا صندوقًا كبيرًا عرفته "كابتن كتل" فقد كان الصندوق الذي تركه في منزل "مسز ماك ستنجر".

وعندما ترك الكابتن وحيدًا مرة ثانية، فكر كثيرًا في "صول جيلز" وقوى هذا التفكير الكثير آماله، وكان في بعض الأحيان يتوقعه في يوم معين.. ولكن "سولمون" العجوز لم يأت.

الفصل الرابع والعشرون

العلاقات المنزلية

سلك "مستر، دمبي" تجاه زوجته الأولى ببروده وكبريائه مثل شخص سامي كما يظن في نفسه تقريبًا، وقد ظن أن الشخصية المتكبرة لزوجته الثانية سوف تضيف إلى شخصيته، تزيد عظمته ولم يفكر أبدًا أنها من المحتمل أن تقف ضده.

ويبدو أن نصيبه كان دائمًا متواضعًا وعديم القوة حيث يريده أن يكون أشد قوة.

من الذي يستطيع أن يكسب زوجته كما كسب ابنه؟ من الذي يستطيع سوى نفس الطفلة التي نظر إليها غالبًا بقلق في طفولتها التي كانت فيها بلا أم بنوع من الخوف خشية أن يكرهها، وقد تحقق هذا الخوف، فقد كرهها بالفعل من قلبه.

لقد كان هو وهي غرباء أحدهما للآخر لقد وقفت ضده في كل طريق، وأن جمالها دفع الناس إلى العطف عليها بينما كانوا قساة عليه.

وأن الكبرياء القاتم وحدة الطبع التي تملكته، عارضته في ذلك زوجته بكبريائها المختلف بأقصى قسوة.. ولقد صمم "مستر دمبي" أن يبين لها أنه شخص سامي، وذات مساء بحث عنها في غرفتها الخاصة بعدما سمع بعودتها إلى المنزل متأخرة.. وقال عندما دخل:– "مسز دمبي" أطلب منك

الأذن بتبادل كلمات قليله معك. فأجابت: غدًا....... فقال: "أنك تخطئين معرفة مركزك، لقد اعتدت أن اختار أوقاتي الخاصة، ولا أجعل أحدًا يختارها لي. إن سلوكك لا يعجبني ولقد طلبت بالفعل أن تصححي هذا السلوك، وأصر الآن على ذلك".

فأدارت عينيها نحوه بثبات وطبقت شفتيها المرتعشة. فقال مستر دمبي:- "أنك كثيرة التكاليف، يا سيدتي، أنك مبذرة وتنفقين مقدارًا عظيمًا من النقود في إيجاد صحبة لا فائدة منها لك ويجب أيضًا أن تفهمي بوضوح، يا سيدتي إنه يجب عليك أن تحرميني وتطيعيني، وأطلب هذا كحق لي، ولا أعتبر أي تبادل غير معقول للمركز الدنيوي الذي حصلت عليه".

ولم تقل أي كلمة، ولم يحدث تغيير، بل ثبتت عينيها عليه وقال مستر دمبي "لقد علمت من والدتك، يا مسز دمبي، إن هواء "بريتون" مفيد لصحتها، لقد كان "مستر كاركر من الطيبة بحيث..

فتغيرت فجأة، واحمر وجهها بحمرة الغضب، وعندما لاحظ "مستر دمبي" هذا التغير استطرد قائلًا:- "لقد كان "مستر كاركر" من الطيبة حيث.. ذهب واستأجر منزلًا هناك لفترة من الزمن وعندما ترجعين إلى (لندن)، سوف استخدم "مسز ببشين" كمديرة للمنزل، فإن منزل كهذا يحتاج إلى شخص ماهر يديره".

فجلست "مسز دمبي" وهي لا تزال تنظر إليه بثبات.. وتدير أسورة حول ذراعه.

فقال مستر دمبي:- "لقد لاحظت منذ دقيقة مضت، أنه عندما

ذكرت "مستر كاركر" تلقيت ذلك في طريقة غريبة، وفي المناسبة التي بينتها لك، أمام هذا الوكيل الحائز على ثقتي، بشأن اعتراضي على الطريقة التي تتبعيها في استقبال لزواري، لم توافقي على وجوده. يستحسن أن تتغلبي على عدم موافقتك، يا سيدتي، وأن تعودي نفسك على وجوده في مناسبات مماثلة إذا لم تتغيري كما أود.

وبوجه لم يتغير قالت "مسز دمبي" في صوت منخفض: "انتظر بحق الله! يجب أن أتحدث إليك، هل سألتك أن تتزوجني؟".

فقال مستر دمبي:- "إن هذا غير ضروري مطلقًا، يا سيدتي لنبدأ مثل هذه المناقشة".

فاستطردت: "هل تظن إنني أحببتك؟ هل حاولت أن تكسب قلبي؟"

فقال ببرود:- "ربما لا، يا سيدتي"

فقالت: "هل عرفت من أنا، هل عرفت تاريخي العام، هل تظن أنك تستطيع أن تستحقني وتجعلني تحت سيطرتك وطاعتك؟ ".

فابتسم مستر دمبي كما لو كان قد سألته إذا كان يستطيع أن يخرج عشرة آلاف جنيه.

قالت أديث: "سوف أعرض عليك طلبًا، حيث أني لا أشعر عاطفة نحوك، كما تعلم، فيجب ألا تهتم بذلك إذا أردت. واعلم بالمثل أنك لا تشعر نحوي بأي عاطفة. ولكننا مرتبطين معًا، والرابطة التي تربطنا معًا تربط آخرين أيضًا. دعنا نسلك سلوكًا حسنًا أحدنا نحو الأخر وفي هذه الأثناء قد تقوم صداقة ما بيننا".

فقال مستر دمبى في كبريائه العظيم:– "إنني لا أستطيع يا سيدتي أن أقبل أي اقتراح شاذ بطبيعته".

فقالت وهي تشير إلى الباب بيد متكبرة: "اخرج، يا سيدي إن ثقتنا الأولى والأخيرة قد ولت، لا شيء يجعلنا، لا شيء يجعلنا أكثر انفصالًا مما نحن فيه من الآن فصاعدًا.

الفصل الخامس والعشرون

الانفصال

رأت "فلورنس" في حزن الكراهية التي بين والدها وأديث، وعرفت أن هناك مرارة عظيمة بينهما كل يوم.

ورأت أن والدها بارد وقاسي في معاملته لأديث كما هو بالنسبة إليها، فهل من الممكن أن أمها العزيزة كانت غير سعيدة بمثل هذه المعاملة فماتت من الحزن؟ ثم فكرت بأي احتقار تعامله أديث وسرعان ما شعرت "فلورنس" أنه من الجريمة أن تحب شخصًا ضد والدها، ولكن كلمة عطف من "أديث" تهز كل هذه الأفكار مرة ثانية، وتجعلها تبدو كنكران للجميل. هكذا أجتهما كليهما فقامت "فلورنس" أكثر مما لو كانت قد مكثت وحيدة في المنزل الحزين، قبل أن تظهر فيه أمها الجميلة.

ولقد توفر على "فلورنس" عدم معرفة نقطة شقاء، فلم يكن لديها أقل شك في أن "أديث" برقتها نحوها قد وسعت شقة الانفصال بينها وبين والدها.

وعدها رأت "سوزان نيبز" شقاء سيدتها الشابة، قررت أن تذهب الى "مستر دمبي" وتتحدث إليه.

كان "مستر دمبى" ينظر إلى المدفأة، فنظر نظرة استغراب إلى الزائرة، وقال: "ماذا تريدين؟".

: "لقد قمت بخدمة "مس فلوى" اثني عشر سنة، ولم تكن تستطيع الكلام بوضوح عندما حضرت هنا أول مرة. وآمل أن تكون خدمتي الحقيقية المخلصة تعطيني الحق في أن أتكلم، بل يجب أن أتكلم يا سيدي!

فقال مستر دمبي وهو ينظر إليها بغضب: "ماذا تقصدين، يا امرأة؟ كيف تجرؤين؟

فقالت سوزان نيبر:– "إن مس فلوي أكثر البنات محبة وصبرًا وجمالًا، وليس هناك رجلًا في إنجلترا إذا عرف قيمتها الحقيقية، سوف يفضل أن يفقد عظمته وثروته عن أن يسبب حزنًا لقلبها الرقيق!" فصاح مستر، دمبي: "غادري الحجرة، يا امرأة!".

–: "حتى لو غادرت المنزل، يا سيدي، الذي أمضيت فيه. سنوات كثيرة ورأيت كثيرًا. لقد رأيت "مس فلوى" تجاهد وتجاهد عندما كانت مجرد طفلة لقد رأيتها بدون تشجيع وبلا مساعدة تكبر وتصبح شابة، فالشكر لله. ولقد رأيتها تهمل دائمًا في قسوة، وتشعر بذلك في حدة. أقول إن هذا شي مخجل جدًا..

قالت "مس ببشن، عندما دخلت الحجرة، وقد أصبحت الآن مديرة المنزل: "ما هذا!"

فكرر "مستر دمبي" في غضب:– "ما هذا! ما هذا يا سيدتي لك حق أن تسألي. هل تعرفين هذه المرأة؟"

فقالت مسز ببشن في صوت قبيح أجش: "كيف تجرؤين وتأتين هنا؟ اخرجي".

قال مستر دمبي:- "إذا وجدت أشخاصًا في خدمتي، لا تستطيعي السيطرة عليهم، يا (مسز ببشن):- فاعتقد أنك تعرفين ما تفعلين معهم. خذوا بعيدًا".

فأجابت (مسز بيشن):- (إني أعرف يا سيدي ماذا أفعل إنذار شهر من الآن يا (سوزان نيبر). وعزائي أنني قلت جزءًا من الحقيقة اليوم وكان يجب أن تفال قبل ذلك بزمن طويل).

وبهذه الكلمات غادرت "مس نيبر" الغرفة وسرعان ما انتشر الخبر في أنحاء المنزل إن "سوزان" سوف ترحل. وعندما صعدت "فلورنس" إلى غرفة "سوزان" وجدت أن (سوزان) قد أغلقت آخر حقيبة وجالسة عليها مرتدية قبعتها.

فصاحت فلورنس:- (سوزان! هل سوف تتركيني! يا فتاتي العزيزة، يا صديقتي القديمة! ماذا سوف أفعل بدونك، فبكت سوزان بحرقة وهي تقول: "لا.. لا، يا حبيبتي، يا عزيزتي مس فلوي، لا أستطيع في الحقيقة ولكن لم أستطع أن أفعل غير ذلك، لقد أديت واجبي".

فتساءلت سيدتها الباكية:- "أين ستذهبين، يا سوزان؟".

فقالت نيبر مكسورة القلب:- "أن لي أخ في الريف، يا أنسه. وعانقت "سوزان" سيدتها الشابة لأخر مرة، وعانقتها بالمثل" .

قال تولينسن مخاطبًا (فلورنس) من خارج الباب ومعه الصناديق:

"أستميحك عذرا!، يا آنسة، ولكن مستر توتس في غرفة الاستقبال ويرسل تحياته".

وأسرعت "فلورنس" هابطة الى غرفة الاستقبال.

قالت:- "عزيزي مستر توتس، هل لي أن أسألك معروفًا هل أسألك أن تعتني بسوزان حتى تركب العربة؟".

وفي الحال دعي "مستر توتس" سوزان لتناول طعام العشاء قبل أن تبدأ في رحلتها، وبعد وجبة طعام جيدة وعطف كثير، وصل (مستر توتس) سوزان الى العربة التي تقوم ليلًا، ووقف بجانب النافذة مترددًا حتى كان السائق على وشك البدء في المسير، عندما قال فجأة:- "أقول يا سوزان!! مس دمبي أنت تعرفين".

: "نعم، يا سيدي؟".

فقال مستر توتس المسكين: (هل تظني أنها تستطيع، أنت تعرفين.. ليس بالضبط في الحال، ولكن بمرور الوقت.. بمرور الوقت الطويل.. أن.. تحبني، أنت تدركين!".

فأجابت سوزان وهي تهز رأسها:- (أوه يا عزيزي، لا! يجب أن أقول.. أبدًا أبدًا.." فقال مستر توتس:- (أشكرك. ليس لهذا نتيجة، أشكرك)

الفصل السادس والعشرون

مستر كاركر الوكيل الموثوق فيه

خرجت (اديث) منفردة ذات يوم وعادت الى المنزل مبكرًا. وبينما كانت تنزل من عربتها تقدم شخص في هدوء من الصالة وقدم لها ذراعه.

وقال كار كر:– (سيدتي هل لي أن أتحدث إليك لحظة؟)

–: "هل المسألة عاجلة؟" فأجاب كاركر:–"إنها عاجلة جدًا "

فقالت اديث:– "قبل أن استمع إليك يا سيدي، أريد أن تستمع إلى. إذا كان قد أمرك رجلًا أرسلك الآن لتعطيني أية رسالة، فلا تحاول أن توصلها، لأني لن أتسلمها".

فأجاب:– "إنه من سوء حظي أن أكون هنا لمثل هذا الغرض اسمحي لي أن أقول إنني هنا لغرضين ذلك أحدهما".

فأجابت:– (هذه الرسالة انتهت).. فاستطرد: "لقد سألني "مستر دمبي" أن أكون وسيط إليك لأنه يعرف أنك لا تحبينني، ولأنه يعتبر أنه أهانه لكبرياء زوجته أن تتلقى أوامره عن طريقي، ألم يعرف "مستر دمبي" أبدًا أن تعارضه كبرياء غاضبة وكراهية قوية".

وبالرغم من أن شفتيها لم تتحرك فقد بدا كأنها تقول:– "ولكنه سيعرف ذلك الآن!".

قال مستر كاركر: "يجب ألا أنسي الغرض الثاني من هذه المقابلة، يجب أن أرجوك مخلصًا أن تكوني حريصة في إظهار حبك نحو مس دمبي".

– "حريصة؟ ماذا تعني؟".

فقال في صوت منخفض:– "أن أوامره أن أخبرك أن سلوكك تجاه "مس دمبي" ليس محبب إليه، وإذا استمريت في إظهار عواطفك فلن تفيدي مس دمبي".

فقالت: "هل هذا تهديد".

فأجاب:– "إنه تهديد، ولكنه ليس موجهًا ضدك".

وقفت تبتسم إليه في احتقار ومرارة، ثم هبطت كما لو كانت الأرض قد مادت تحتها، وكان من الممكن أن تقع لو لم يمسكها بين ذراعيه. وأبعدته ثم وقفت تواجهه ويدها ممتدة، وقالت: "من فضلك اتركني، لا تقل شيئًا أكثر الليلة".

فتناول يدها في إحدى يديه، وقبلها ثم انسحب.

الفصل السابع والعشرون

هروب اديث

إن الفاصل الذي بين "مستر دمبي" وزوجته لم يضعف بمرور الوقت.

وكانت "فلورنس" قد بلغت تقريبًا السابعة عشر وكانت وحيدة الآن في أغلب الأحيان. وعندما لاحظت أن "اديث" تتحاشاها، ذهبت إليها في حجرتها ذات ليلة.

قالت فلورنس: "هل أغضبتك، يا ماما؟ فأجابت اديث: "كلا".

فقالت فلورنس: "لقد غيرت معاملتك لي، يا أمي العزيزة. أشعر بأقل تغيير لأني أحبك من كل قلبي".

فأجابت اديث وهي تنظر في العينين اللذين ينظران إليها بحب: "عزيزتي فلورنس، لا أستطيع أن أخبرك السبب، إنه ليس بالنسبة لي أن أعطى سببًا، ولا بالنسبة لك أن تسمعي السبب، ولكن هذا واجب".

فتساءلت فلورنس وهي تحملق إليها كما لو كانت خائفة: "هل سنصبح غرباء، يا ماما؟".

فأجابت أديث: "ليس غرباء تمامًا، ظاهريًا فقط، يا فلورنس، ففي داخلية قلبي ما زلت على حبي لك، وسأظل كذلك دائمًا. عزيزتي فلورنس إنه أحسن.. إنه ضروري.. إننا يجب أن نرى بعضنا البعض أقل".

فتساءلت فلورنس: "هل على الدوام؟".

فأجابت اديث: "لست أقول هذا، لست أدري".

فقالت فلورنس في قلق: "ماما، هناك تغيير طرأ عليك".

فقالت اديث: "لا، لا يا عزيزتي، صدقيني، فبالرغم أن الأشياء تبدو مختلفة بيننا، فإنني لم أتغير بالنسبة لك داخل القلب، لا تسأليني أكثر. اذهبي، يا فلورنس ولك حبي وندمي".

ومن ذلك الوقت، لم تعد فلورنس واديث كما كانا، وقلم تقابلا إلا على المائدة وعندما يكون مستر دمبي موجودًا.

وفي اليوم قبل العيد الثاني الزواج والدها من اديث، اتخذت "فلورنس" مقعدها عند مائدة العشاء، ولم يدر إلا حديثًا قصيرًا أثناء تناول العشاء. ولقد سمعت والدها يتحدث الى "مستر كاركر" في بعض الأحيان بشأن الأعمال، ولكنها لم تعر ما يقولون إلا انتباهًا قليلًا، ولقد تمنت فقط انتهاء العشاء، وعندما وضعت الفاكهة على المائدة، قال مستر دمبي، أنني قد أبلغت مديرة المنزل وجود بعض الضيوف لتناول طعام العشاء هنا غدًا".

فأجابت: "سوف لا أتناول طعام العشاء بالمنزل".

فاستطرد غير عابئ بها: "لن تكون حفلة كبيرة، حوالي اثني عشر أو أربعة عشر فقط"

فكررت "سوف لا أتناول طعام العشاء بالمنزل".

فقال مستر دمبي: "يجب أن نحافظ على مظهرنا اللائق أمام جميع

الناس في هذه الأشياء، وإذا لم يكن لديك احترام لنفسك يا مسز دمبي..".

فقالت: "ليس لدي احترام" فصاح مستر دمبي وهو يضرب بيده على المائدة: "اصغ إلى، يا سيدتي، من فضلك، أقول إذا كان ليس لديك احترام لنفسك...".

فأجابت: "وأقول إنني ليس لدي احترام" فقال مستر دمبي وهو يلتفت إلى كاركر: "أخبر مستر دمبي، يا كاركر، إنها إذا لم يكن لديها احترام لنفسها، فإن لدي احترام لنفسي، ولهذا أصر على الترتيبات التي سوف تقام غدًا".

فقال أديث: "قل لسيدك السامي إنني سوف أتكلم معه في هذا الموضوع على انفراد".

فقال زوجها: "إنني مضطر أن أرفض منحك هذا المعروف".

فقالت اديث: "إن ابنتك موجودة، يا سيدي".

قال مستر دمبي: "سوف تبقى ابنتي موجودة. إنه بالتأكيد جزء من واجبها نحوي أن تعرف أي نوع من السلوك تتحاشاه. إنك مثال قوى من هذا النوع لها، وآمل أن تتعلم هذا".

قالت زوجته ولا زالت جالسة في سكون تمامًا: "لن أوقفك الآن".

قال مستر دمبي: "لقد نسيت تمامًا عندما ابتدأت أن ابنتي موجودة، يا مسز دمبي".

فقالت أديث وهي تشير بيد ترتعش خفيفًا للمرة الأولى والوحيدة "أليس يكفي أن تنظر هنا وتفكر فيما فعلت، والألم الذي سببته لي في عمل هذا. ثم تضيف إلى هذا قوة بالغة عندما تجعلها ترى الى أي حد انحدرت، أنت تعلم أنه من أجلها سوف أفعل كل ما ترغب إذا استطعت.. ولكني لا أستطيع أن أستسلم تمامًا لإرادتك وأصبح العبدة الحقيرة التي تمتلكها".

فالتفت إلى "فلورنس" وأمرها أن تغادر الحجرة، فأطاعت "فلورنس" وخرجت تبكي.

قالت مسز دمبى:- "سوف لا أفعل أي شيء بما تطلب".

فقال دمبى وهو يعبس:- "إن مسز دمبي، يا كاركر؟ تضعنى في مركز غير ملائم لشخصيتى، لذلك يجب أن أنهي هذه الحالة".

فقالت اديث مخاطبة مستر كاركر: "أخبره أنني أرغب في انفصال بيننا، اخبره أن يحدث هذا بشروطه الخاصة... وأن ثروته لا شيء بالنسبة لي... ولكن هذا لا نستطيع أن يكون سريعًا جدًا.

فقال زوجها في دهشة عظيمة:- "يا للسماء، يا مسز دمبي هل تعرفين من أنا، يا سيدتي؟ سيقول الناس أن مستر دمبي... مستر دمبي... انفصل عن زوجته! إنك بلهاء! وانفجر مستر دمبي ضاحكًا".

نزعت مسز دمبي المجوهرات اللامعة من رأسها وذراعها وألقتها على الارض وبدون كلمة نظرت إلى مستر، دمبي وهى تتحرك نحو الباب وغادرته.

ولقد سمعت "فلورنس" ما يكفي قبل مغادرتها الحجرة لتعرف أن "أديث، لا زالت تحبها، وأنها احتفظت بتضحياتها في هدوء خشية أن تضايقها. وأرادت أن تخبر "اديث" كم هى حافظة للجميل. وتجولت فلورنس في أنحاء المنزل على أمل أن تقابلها قبل أن تذهب إلى الفراش. كانت تعبر الممر عندما رأت "مستر كاركر" يهبط، السلالم وحيدًا ثم فتح الباب لنفسه وتسلل خارجًا، وقفل الباب في هدوء خلفه.

وبرد الدم في عروق "فلورنس" وبمجرد ما استطاعت، ذهبت سريعًا إلى حجرتها الخاصة وأغلقت الباب، ولكن مع ذلك كان يتملكها شعور خوف كما لو كان هناك خطر في مكان ما بالقرب منها. وفي الصباح بحثت عن "أديث" مرة ثانية في كل الحجرات ولكنها لم ترها.

ومبكرًا في ذلك المساء، قابلت "فلورنس" "أديث" وهي تهبط وحيدة. وكم كان رعبها عظيمًا عندما صرخت اديث:– "لا تقتربي مني ابعديى، دعيني أمر؟ لأ تلمسيني!".

وسقطت "فلورنس" على السلالم مغشيًا عليها، ولم تدرك شيئًا حتى وجدت نفسها راقدة في فراشها الخاص، فصممت ألا تذهب لتنام حتى تعود "أديث" لتتأكد أنها في سلام في البيت ومر المساء وحل الليل ثم منتصف الليل ولم تعد اديث. وعندما أخبروا "مستر دمبي" أن زوجتة لم تعد إلى المنزل، أرسل خادمًا إلى الاسطبل ليستعلم إذا كان الحوذي هناك.

رجع الخادم مع الحوذي الذي قال إنه أوصل سيدته في الساعة العاشرة لمنزلها القديم حيث قابلت "مستر كار كر" ورأت فلورنس والدها

وقد شحب وجهه.

وأمسك بفانوس وصعد إلى غرفة "مسز دمبي"، فتح الباب واندفع إلى الداخل.

وكان ملقى على الأرض كل رداء اشترته منذ أن أصبحت زوجة فوضعها في الإدراج في كومة، ورأى بعض الأوراق على المنضدة أوراق تغيير العقود الذي أعطاها لها بمناسبة زواجهما، وخطابًا فقرأ أنها قد هربت مع "كاركر" الرجل الذي اختاره لإذلالها.

كان أول شعور واضح تغلب على حزن "فلورنس" العميق هو الشفقة والعطف على والدها.

فأسرعت نحوه، وقد مدت ذراعيها صائحة:- "أه عزيزى، ولكن في ثورة غضبه، رفع يده القاسية وضربها بشدة لدرجة أنها سقطت على الأرض الرخام. وعندما ضربها أخبرها ماذا كانت "اديث" وأمرها أن تتبعها لأنهما كانا دائمًا مغرمين أحدهما بالآخر.

ولم تنبس بكلمة تأنيب، ولكنها نظرت إليه، وندت صرخة حزن عميق من قلبها ورأت أنها لم يصبح لها أبًا وهرعت خارجة من البيت يتيمة.

الفصل الثامن والعشرون

هروب فلورنس واكتشاف

فكرت "فلورنس" في المرة التي ضلت فيها الطريق في "الندن"... ولو أنها لم تضل هذه المرة... وذهبت الى منزل عم "ولتر" وعندما وصلت هناك... أغمي عليها.

وكان الكابتن شاحب اللون مثل فلورنس، فرفعها كطفل ووضعها على نفس الكنبة القديمة التي نامت عليها منذ زمن بعيد. صاحت "فلورنس" عندما استردت وعيها:- "كا بتن كتل! هل أنت!"

فقال الكابتن!- "أجل، يا سيدتي الشابة".

فتساءلت فلورنس:- "هل عم ولتر هنا؟".

فأجاب الكابتن:- "هنا، يا جميلتى؟". لم يكن هنا من مدة طويلة.

فصاحت فلورنس:- "وه، كابتن كتل! انقذني! ليس لي أحد في العالم لأذهب إليه، ألا تطردني".

فصاح الكابتن في استغراب:- أطردك، يا سيدتي الشابة! وبهذه الكلمات أغلق الكابتن الباب.

فتناولت فلورنس يده وقبلتها.

فقال الكابتن: "تشجعى! يجب أن تتناولي الافطار، وبعد ذلك

تصعدى إلى الطابق العلوي إلى حجرة "صول جيلز" العجوز وتنامين هناك كالملاك.

ولم يصدق الكابتن أنه من الممكن لفلورنس أن تصعد السلالم، فقد كانت فلورنس من الضعف فحملها "الكابتن الى الطابق العلوي ولم تناقش هذه النقطة".

قال الكابتن: "ياسيدتي الشابة، إنك هنا في أمان جدًا أن ما تحتاجين إليه هو النوم، وإذا احتجت لأي شيء فناديني".

وعندما هبط إلى حجرة الجلوس الصغيرة، قرر "كابتن كتل" أن يفتح باب الدكان ويرضى نفسه طالما ليس هناك أحد في الخارج وعندما فعل ذلك سمع صوتًا بجانبه يقول:

"كيف حالك، يا كابتن جيلز".

ورأى الكابتن أن هذا "مستر توتس"، فقال:- "كيف حالك يا فتى؟".

فقال مستر توتس:- "حسنًا، إني في صحة جيدة أشكرك يا كابتن جيلز، أنت تعلم أنني لم أكن أبدًا كما أتمنى أن أكون ولا أتوقع أن أكون أحسن".

لم يقترب "مستر توتس" أكثر من ذلك بالنسبة لحبه لفلورنس عندما يتحدث مع "الكابتن كتل".

قال مستر توتس:- "كابتن جيلز، هل أستطيع أن يكون لي شرف الكلام معك... إنه شيء هام نوعًا ما-".

فأجاب الكابتن:– لماذا، أنت ترى يا فتى إإني لست فاضي تمامًا هذه الصباح، وإذا أسرعت سأكون لك شاكرًا.

– "لقد تصادف وكنت في هذا الطريق مبكرًا في هذا الصباح فوجدت الباب مقفلًا..."

فتساءل الكابتن: "ماذا! هل كنت تنتظر هناك، يا أخي؟".

فأجاب توتس:– "لم أتوقف لحظة، لقد ظننت أنك في الخارج ولكن الشخص قال عندما كنا في الخارج قال أنك إذا سألت أن تستعد، فإنك بلا شك سوف تأتي مستعدًا".

فقال الكابتن: "أي شخص يافتي!".

فأجاب مستر توتس:– "إنني متأكد أني لست أعرف هذا الشخص، يا كابتن جيلز. ولكن عندما حضرت إلى الباب، ووجدته ينتظر هناك وسألني إذا كنت أستطيع أن أقول لك ما قلته عن المجيء مستعدًا، وأن أسألك أن تذهب لتقابل صديقًا على الناصية لمسألة أكثر أهمية".

فشكره الكابتن قلبيًا ووعده أن يرجع في أقل من خمس دقائق وخرج بحثًا عن الشخص الذي أعطى "مستر توتس" هذه الرسالة الغامضة.

وعندما عاد، كان في الحقيقة شاحبًا جدًا، وبدا كما لو كان يبكي، وبدا كأنه فقد قوة الكلام حتى تناول كوبًا من الروم.

قال توتس في شفقة:– "كابتن جيلز، آمل ألا يكون هناك شيء خطأ".

فقال الكابتن: "أشكرك، يا فتى؛ ليس إطلاقًا؛ على العكس تمامًا".

وعندما رحل "مستر توتس" أغلق الكابتن الباب خلفه وصعد ليرى إذا كانت "فلورنس" تريده.

قرع الباب بخطافه برقة ولكنه لم يتلقى إجابة.

ولقد مضت مدة طويلة قبل أن تستيقظ "فلورنس"، وكانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب عندما نهضت مفزوعة وحملقت حولها بنظرة استغراب، ثم تذكرت كل شيء.

قال الكابتن وهو يقرع الباب:- "كيف حالك، يا جميلتي؟".

فصاحت فلورنس مسرعة إليه:- "صديقي العزيز، هل أنت؟".

وشعر الكابتن بفخر في مناداته هكذا، وسر من نظرة السرور التي ارتسمت على وجهها عندما رأته.

قال:- "سأهبط إلى أسفل، وأجهز طعام العشاء".

وبعد العشاء، وضعت "فلورنس" غليونه في يده ورجته أن يدخن، ثم مزجت به كوبًا من الروم ووضعتها بجانبه، فشعر بتكريم. ثم أشعلت غليونه له ونظرت إليه بابتسامة كلها محبة وامتنان حتى أن دخان الغليون دخل في عين الكابتن فجعلته يرمش وغرورقت بالدموع.

وفي اليوم التالى، كانت "فلورنس" أكثر هدوءً مما كانت في اليوم السابق، وعندما كانت أضواء المدفأة تلمع على جدران الحجرة الصغيرة، قطع الكابتن الصمت الطويل هكذا.

"ألم تذهبى أبدًا البحر"

فأجابت فلورنس:- "لا" فقال الكابتن باحترام: "إنه قوة جبارة" فتساءلت فلورنس: "هل كنت في عاصفة مخيفة؟".

فقال الكابتن: "لماذا.. نعم، يا سيدتي الشابة، لقد حصلت على نصيبي من الجو السيىء، ولكن لم أكن أقصد نفسي بالكلام، ولكن ابننا العزيز "ولتر"، الذي غرق".

فصاحت فلورنس: "لقد تغير وجهك، ماهذا؟ عزيزى الكابتن إنني أشعر ببرودة من رؤيتك هكذا!"

فقال الكابتن: "هناك أخطار ومجازفات في البحر، يا جميلتى وكم طوى البحر من سفن كبيرة ورجالٍ شجعان، ولكن هناك هروب من البحر أيضًا، ففي بعض الأحيان تنقذ رحمة الله رجلًا فيعود إلى الوطن بعدما ظنوه ميتًا".

وتبعت "فلورنس" نظرته وهي ترتعش، وكان ينظر خلفها في الدكان حيث يضيء مصباحًا.

قال الكابتن: "إثبتى يا عزيزتى، تشجعي، لا تنظري حولك بعد.. انظري هناك.. على الحائط!".

كان هناك خيال رجل على الحائط بالقرب منها، ففزعت ونظرت حولها وصرخت صرخة عالية، فقد رأت "ولتر جاى" خلفها.

ولم تكن لديها فكرة نحوه سوى أنه أخ، فاندفعت بين ذراعيه.. وقد بدا أنه أملها وسلوتها من كل العالم.

ولم يضيء وجه الكابتن طول حياته كما أضاء أخيرًا عندما جلس على مائدة الشاي ينظر من "فلورنس" إلى "ولتر"، ومن "ولتر" إلى "فلورنس".

وجلسوا هكذا حتى تأخر الوقت، وحينئذ نهض ولتر ليستأذن في الانصراف لمدة الليل.

فقالت فلورنس: "إنني السبب في رحيلك، يا ولتر".

– إذا كان ما يجعلني سعيدًا هو السماح لي بأن أراك وأتحدث إليك، فبالأحرى اكتشاف أن لدى وسيلة على الارض لأؤدي لك خدمة بسيطة!".

فابتسمت ودعته أخًا لها.

قال ولتر: "لقد تغيرت كثيرًا".

فقاطعته: "تغيرت!".

فقال "ولتر" كما لو كان يفكر بصوت عال: "بالنسبة لي، لقد تركتك طفلة، ثم وجدتك.. أوه.. شيئًا مختلفًا جدًا..".

وأخذ "ولتر" يدها بين كلتا يديه، ووضعها على شفتيه وقبلها. ولقد أدرك الآن أنها فتاة بلا مأوى، متجولة، ولكنها بدت أبعد كثيرًا عما كانت في أحلام صباه".

الفصل التاسع والعشرون

صديق مخلص

وفي هذا الصباح، أتى "مستر توتس" مندفعًا الى حجرة الجلوس، وقال: "كابتن جيلز" لقد فقدت عقلى تقريبًا، أرجو أن أتحدث إليك على انفراد.

فقال الكابتن: "انظر هنا، يا أخي، هنا يوجد "ولتر" ابن أخو "صول جيلز" العجوز الذي كان مفروضًا أنه غرق في البحر".

حملق "مستر توتس" في "ولتر" وقال: "يا الهى! كيف حالك؟ أنا.. أنا.. أخشى أن تكون قد أصابك بللًا كثيرًا، هل تسمح لي يا كابتن "جيلز" بكلمة في الدكان؟

وأمسك الكابتن من معطفه وخرجا، ثم همس: "هذا اذن.. يا كابتن جيلز، الشخص الذي تحدثت عنه عندما قلت أنه ومس دمبي خلق أحدهما للاخر؟

فأجاب الكابتن: "لماذا؟ نعم، يا فتى، لقد ظننت هذا ذات مرة".

فقال مستر توتس: "منافس مكروه!"، ثم قال بعد أن فكر ثانية: "على الأقل إنه ليس منافس مكروه، إلا إذا كانت محبتي حقيقة غير مبنية على الأنانية، يا "كابتن جيلز"، دعني أثبت ذلك الآن!".

واندفع مستر توتس إلى الخلف فجأة في حجرة الجلوس، وقال وهو يصافح ولتر: "كيف حالك؟ آمل ألا تكون قد أصبت ببرد. أنا.. سأكون سعيدًا جدًا إذا أعطيتني شرف التعارف عليك.. أتمنى لك أيامًا سعيدة".

فقال ولتر: "أشكرك من كل قلبي".

قال مستر توتس: "كابتن جيلز" أرجو أن يسمح لي الآن بأن أتحدث بشأن موضوع معين...".

فأجاب الكابتن: "نعم.. نعم... يافتى... بحرية... بحرية".

قال مستر توتس: إذن، يا "كابتن جيلز" ويا "حضرة الملازم ولتر"، هل تعرفان أن "مس دمبي" قد غادرت منزل والدها، ولا أحد يعرف أين تكون؟".

فقال ولتر: "مستر توتس" إني سعيد أن أكون قادرًا على إراحة عقلك، إن "ميس دمبي" في أمان وصحة جيدة، وسيكون لعقل كريم مثل عقلك أكثر راحة وسرور عندما يجد أنه يستطيع أن يؤدى لها خدمة. هل تتكرم، يا كابتن كتل، بمصاحبة مستر توتس إلى الطابق العلوي؟

إن دهشة "مستر توتس" المسكين وسروره عند رؤية "فلورنس" كانت عظيمة لدرجة أنه لم يستطع أن يجد تعبيرًا، فجرى إليها وأمسك يدها وقبلها، وبكى ثم قهقه.

قالت فلورنس: "إنني مسرورة جدًا برؤيتك يا عزيزى مستر توتس".

فقال مستر توتس: "أشكرك، إنني بخير، إنني ممنون لك، يا مس دمبي،

آمل أن تكون كل العائلة بخير".

قال "مستر توتس" هذا دون أدنى فكرة عما يتحدث.

ثم قال مستر توتس: "لقد ذكر "الكابتن جيلز" و "الملازم ولتر" إنني أستطيع أن أؤدي لك خدمة، يا مس دمبي".

فقالت فلورنس، "إن ما فكرنا في سؤالك، هو إذا كنت تستطيع أن تتذكر أين نجد "سوزان؟"

فقال مستر توتس: "إذا كان هدفك هو إيجادها، فسوف أحضرها لك، يا مس دمبي. إلى اللقاء! يمكنك أن تثقي في بعد كابتن جيلز نفسه".

لقد فكرت "فلورنس" في هذه المخلوقة الطيبة مدة طويلة بعد أن رحلت عنها بمزيج من الألم والسرور. لقد كانت ضعيفة ورقيقة، فإن المتاعب التي قاستها قد أثرت على صحتها. ولكن لم يكن المرض الجسماني هو الذي يؤثر عليها الآن، فقد كانت قلقة عقليًا، وسبب قلقها هو "ولتر" فبالرغم من أنه مهتمًا بها، مشتاق إليها، وسعيدًا بخدمتها، فقد رأته فلورنس أنه يبتعد عنها. فإذا لم تسأل عنه فإنه لن يأت. فقررت أخيرًا أن تتحدث إليه، فقد اعتقدت أنها تعرف سبب ابتعاده عنها.

قالت له: « هل تذكر، يا ولتر، آخر مرة رأيتك فيها قبل أن ترحل؟".

فوضع يده في صدره وأخرج محفظة صغيرة.

"لقد ارتديتها حول عنقي! ولو كنت غرقت في البحر، لكانت معي في أعماق البحر".

– "هل لا تزال ترتديها يا ولتر، من أجلي؟".

– "حتى أموت!".

– "إنني مسرورة لهذا، يا ولتر. لقد كنت السبب في هدم آمالك ومستقبلك، لقد حاولت أن تخفي ذلك عني، أشكرك علي هذا يا ولتر، ولكنك لا تستطيع أن تنجح، فقد قاسيت كثيرًا لتستطيع أن تتغاضى عن سبب كل الأحزان التي حلت بك، لا تستطيع أن تنسى تمامًا، لأنه بسببي أرسلت إلى "باربادوس" وأن كل ما أسألك، يا ولتر، هو أن لا تقاوم نفسك وتؤلمها من أجلي طالما أنني أعرف كل شيء!".

فنظر إليها "ولتر" بوجه ارتسمت عليه علامات الاستغراب والدهشة وقال:

– أوه، مس دمبي، سوف لا أعتبر اشتراكك في حياتي إلا شيء مقدس. إن أعظم سعادة لي هو أن أراك تنظرين، وأسمعك تتحدثين كما فعلت في تلك الليلة عندما افترقنا. وأن ما أقدره بعد ذلك هو أنك تحبيني وتثقي في كأخ لك. ولكني ليس لي حقوق أخ، فقد غادرت طفلة.. ثم وجدت سيدة.

فانتشرت حمرة الخجل على وجهها.

ثم استطردت قائلًا:

– إنني مدين لقلب مخلص طاهر وطيب حتى ولو أبعدت نفسي عنه، ولكني أمزق قلبي. كيف أجرؤ وأقول أنه قلب أختى فلورنس.

ثم قال في عاطفية:- "لو كنت غنيًا لأخبرتك أنه يوجد اسم واحد يمكنك أن تناديني به، وهو يعطيني الحق في أن أحميك وأحبك، وإنني جدير بهذا الاسم في شيء واحد هو الحب والشرف الذي أكنه لك، أن يكون قلبى كله ملك لك.. أحنت رأسها، وانسابت دموعها".

– عزيزتي فلورنس! عزيزتي فلورنس.. دعيني لآخر مرة أناديك باسمك الخاص العزيز على، وألمس هذه اليد كعلامة على نسيانك الأخوى كما قلت.

فقالت: "كلا، يا ولتر، لا أستطيع أن أنسى هذا، ولن أنساه أبدًا، هل أنت.. هل أنت فقير جدًا؟".

فقال ولتر: "إنني متجول فقط أكسب قوتى بالقيام برحلات عبر البحر، هذه مهنتي الآن".

– هل سترحل مرة ثانية قريبًا، يا ولتر؟.

– قريبًا جدًا.

فقالت في خجل: "إذا كنت سوف تتخذني زوجتك، يا ولتر فسوف أحبك كثيرًا ولا أستطيع أن أتخلى عن أي شيء لك... فليس لدي أي شيء لأتخلى عنه، ولا أحد لاتركه، ولكن سيكون حبي وحياتي مكرسًا لك".

فاحتضنها إلى قلبه ووضع خدها على خده، والآن لم تعد غير محبوبة أو مهملة، فبكت على صدر حبيبها.

الفصل الثلاثون

الهارب

كان الوقت قبل منتصف الليل بساعة، والمكان عبارة عن شقة على الطراز الفرنسي تشمل حوالي ست حجرات.

جلست في أصغر الغرف امرأة جميلة... "أديث" كانت وحيدة، ولا تزال نفس المرأة المتكبرة المتعالية. جلست وانتظرت.

عند سماع صوت المفتاح في الباب الخارجي، ثم وقع أقدام في الصالة فزعت وصاحت: "من هذا؟"

دحقل "كاركر" من الباب الخارجي ثم أغلقه خلفه، وحينئذ أتى. وقد أقفل كل الأبواب خلفه أثناء قدومه. رفعت يدها لحظة من فوق الكرسي المغطى بالقطيفة لتحضر سكينًا في متناول يدها كانت على مائدة الطعام بالقرب منها.

قال كاركر: "لم أرك أبدًا تبدين جميلة مثل الليلة".

كان قادمًا نحوها بفرح عندما، في لحظة، تناولت السكين من فوق المائدة.

وقالت: "قف ساكنًا! وإلا سوف اقتلك!".

كان الغضب والدهشة مرتسمًا على وجهه، ولكنه تحكم فيها وقال

بفرح: "تعالي، تعالي نحن منفردين، وبعيدًا عن بصر أو سمع أي شخص، هل تقصدين إخافتي بهذه الحيل؟".

– هل تقصد أن تخيفني؟ إذا كنت أخشاك فهل أكون هنا في منتصف الليل لأقول لك في وجهك ما سأقوله؟".

فقال: "وما هو؟"

فأجابت: "لن أخبرك بشيء حتى تذهب إلى ذلك المقعد. لاتقترب منى: أقول لك، إذا اقتربت مني، فسوف أقتلك!"

فعض شفته، وعبس ثم ضحك وجلس في المقعد بعدم صبر لم يستطع أن يخفيه.

قالت "أديث" وهي تنظر إليه نظرة غضب:

– كم مرة سخرت مني في زواجي؟ كم مرة كشفت عورة جرح الحب نحو تلك الفتاة الجميلة الغير سعيدة؟ كم مرة أضفت إلى البؤس الذي تحملته مدة سنتين، ثم أغريتني لكي أنتقم انتقام يائس؟

فأجاب: "تعالي، يا اديث لزوجك المسكين البائس، إن هذا التصرف كان حسنًا لدرجة..".

فقالت وهي تنظر إليه بكبرياء واحتقار: "لماذا، إذن لم يكن هناك سببًا آخر لاحتقاره، فإن كونك مستشاره يكفي ليجعلنى أحتقره".

فسألها: "هل هذا هو السبب الذي جعلك تهربين معي؟".

فأجابت: "نعم، ولماذا نحن نواجه بعض للمرة الأخيرة. لقد لعبت دور

الخائن. لقد كنت غير صادقًا معه، غير صادق لابنته البريئة، غير صادق في كل مكان".

لم يستطع أن ينظر إليها، ولم يكن خائفًا منها، فقد أدرك أن كراهيتها لن تؤدي إلى شيء.

قالت: "خذ تحذيري لقد خانوك، كما يحدث لكل الخائنين، فقد رأيت زوجي في عربة في الشارع هذه الليلة!".

وفي هذه اللحظة، دق الجرس بصوت عال في الصالة، فشحب وجهة. وفي لحظة ذهبت الى غرفة النوم، وأغلقت الباب خلفها وفي هذه الأثناء كان الجرس يدق باستمرار. وكان هناك أصوات عديدة تتحدث معًا، وعرف أحدها جيدًا لا يدع شكًا لمن هذا الصوت.

اقتحم باب غرفة النوم، ولكنها كانت مظلمة وخالية، وعندما رأى سلالم ليست بعيدة وشعر بهواء الليل يهب نزل إلى الشارع.

وبينما كان يزحف، كان يصب اللعنات على "اديث".

وهكذا وصل إلى بوابة فناء فندق حيث ساوم لتأجير عربة إلى باريس.

قال للسائق: "اصغ يا صديقى، إنني في عجلة جدًا، دعنا نرى بأي سرعة نستطيع السفر".

لم يستطع التفكير في أي هدف، وحينئذ طافت في ذاكرته ذكريات الأيام الماضية قبل الزواج الثاني، فكر كيف كان غيورًا من الابن، وكيف كان غيورًا من الفتاة، وكيف أحاط بمهارة سيده العبيط بدائرة لا يستطيع

أن يعبرها أي شخص إلا هو. وحينئذه فكر هل فعل كل هذا لكي يهرب فقط، مثل اللص خائف من نفس ذلك الشخص العبيط؟

ومرة بعد أخرى أصغي لصوت العجلات خلفه، ومرة بعد الأخرى كان يبدو أنه يسمعها تأتي بصوت أعلى. ثم خفتت النجوم وابتدأت الشمس في الشروق، وعندما نظر إلى الخلف استطاع أن يرى أنه لم يكن هناك مسافر على مرمى البصر.

كانت الرحلة مثل حلم لم يكن شيئًا فيها حقيقى تمامًا ولكن ناشيء مما هو فيه من عذاب. كان حلم ينساب وهو عطشان ومتعب ونصف مجنون للاستمرار كما لو كان لا يستطيع التوقف ويصل الى باريس.

ثم كان هناك حلم برؤية ضوء الصباح على حواف الأمواج البعيدة، ثم تسافر أخيرًا مع الماء راجعة مرة ثانية إلى انجلترا.

لقد فكر في الذهاب إلى مكان ريفي بعيد يعرفه. ولهذا الغرض ركب في عربة سكة حديد بأسرع ما يستطيع، وبعد أن وصل إلى المحطة ذهب مباشرة إلى الفندق دون أن يراه أحد.

كان قد أمضى وقتًا طويلًا جالسًا على ضوء الشمعة يشرب ويفكر عندما فزع وأصغى في رعب مفاجيء.

كان هناك اهتزاز في الأرض، وصرخة بعيدة، وضوء قاتم يتقدم تغير سريعًا إلى عينين حمراويتين، وحركة قوية الى الامام صادرة من مجموعة كبيرة... ريح عالية وزئير... آتى قطار ثم ذهب! انتظر قطارًا أخر وأخر.

رقد ساكنًا في الفراش مصغيًا، وعندما شعر أن الأرض تهتز، نهض

وذهب إلى النافذة ليراقب، واستمر هذا طول الليل.

سأل الرجل الذي دخل في الفجر ومعه شمعة: "في أي وقت. قلت إنني سأرحل من هنا؟".

فأجاب الرجل: "حوالى الساعة الرابعة والربع، ومن المحتمل أن ألا يذهب معك أي شخص: يوجد سيدان هنا ولكنهما ينتظران القطار إلى لندن".

قال كاركر وهو ينظر إليه في شك: "لقد ظننت أنك قلت أنه لا يوجد أحد هنا".

فقال الرجل: لقد حضر السيدان في الليل ياسيدي.

وارتدى "كاركر" ملابسه بسرعة ودفع ما يستحق عليه، وخرج.

دفع نفقات رحلته وأخذ يسير جيئةً وذهابًا، عندما رأى الرجل الذي هرب منه... فتقابلت أعينهما، وفي خوفه ودهشته، انزلق "كاركر" فسقط على القضبان أسفله.

سمع صياح... شعر بالارض تهتز... فعرف أن القطار قادم... صرخ... رأى العيون الحمراء تطبق عليه.. لم يمكنه الهرب، انقلب مرة بعد أخرى، ثم ألقى ميتًا فوق القضبان.

الفصل الحادي والثلاثون

زفاف آخر

كانت دكان صانع الأدوات ممتلئة بالحياة. فقد وصل "مستر توتس" و "سوزان" أخيرًا.

صاحت "نيبر" وهي تهرع إلى غرفة فلورنس: "أوه" يا عزيزتي الجميلة، مس فلوى اللطيفة، ما كنت أظن أنني أجدك هنا بدون منزل خاص لك".

فقالت فلورنس: "سوزان، عزيزتي سوزان الطبيبة"

– "باركها يا الله! لقد كنت وصيفتها عندما كانت طفلة صغيرة! هل ستتزوجين حقيقة؟".

فقالت فلورنس: "من أخبرك هذا؟" فأجابت سوزان: "أوه يا الهى! هذا المخلوق البريء توتس".

ومر الوقت سريعًا حتى أصبح مساء قبل أن يرتبوا للزفاف. اجتمعوا جميعًا في الحجرة العليا للدكان عندما صاح الكابتن فجأة، في زئير: "صولى جيلز هنا!" وسقط بين ذراعى الرجل العجوز الذي دخل الحجرة"

قال الكابتن وهو يبتسم في سعادة: "صول جيلز، صول جيلز، ماذا كنت تفعل كل هذا الوقت، يا ولدي العجوز؟".

فقال صول جيلز: "لقد تغلب على كل شيء، حتى أنني.. لا أستطيع

أن أقول كثيرًا الليلة".

وفي ساعة مبكرة أوت "فلورنس" إلى فراشها، ولكن ليس قبل أن يسأل العم "صول" و "ولتر"، أحدهما الآخر أسئلة كثيرة عن رحلاتهما والأخطار التي صادفتهما.

قال ولتر وهو يفترق عنه: "هل سنرى أحدنا الآخر غدًا صباحًا، يا مستر توتس؟".

فأجاب مستر توتس ممسكًا بيده بحرارة:: "سأكون موجودًا بالتأكيد، يا حضرة الملازم ولتر".

فقال ولتر: "أرجو أن تعلم أنني ممنون جدًا لك، لقد جعلتني "فلورنس" أعدها أن أخبرك مع حبها أنها لن يكون لها صديقًا تقدره أكثر منك، هل أقول أي شيء لها بالنيابة عنك؟".

فأجاب مستر توتس في غير وضوح: "قل لها، يا ولتر، أنني سعيد لأعرف أنها تزوجت الرجل الذي تحبه والذي يحبها".

وتزوجا في الصباح التالي ووقعا باسمهما في أحد السجلات القديمة.

ومرت أيام قليلة وأبحرت سفينة فخمة في البحر، وقد جلست "فلورنس" و "ولتر" منفردين على ظهر السفينة في الليل.

قالت فلور نس: "عندما أسمع البحر، وأجلس أراقبه، تتدفق أفكارًا كثيرة إلى عقلي، وتجعلني أفكر كثيرًا.".

– "في بول، يا حبيبتي، أعرف ذلك".

– في "بول" و "ولتر"! وإن أصوات الأمواج تهمس دائمًا لفلورنس عن الحب، عن الحب الذي يدوم وليست له حدود.

الفصل الثاني والثلاثون

العقاب

وفي يوم صيف بعد الظهر، بعد مضي سنة تقريبًا، كان هناك همس عن فشل عظيم في البورصة، وفي اليوم التالي انتشر الخبر أن شركة دمبي وولده قد توقفت، وفي ثاني ليلة ظهر كشف من إعلان إفلاسهم وعلى رأسهم ذلك الاسم.

ولقد طرأت تغييرات على هذا المنزل العظيم لا يزال منزلًا عظيمًا قادرًا على مقاومة الرياح والمناخ، ولكنه مهدم بالرغم من ذلك.

وبعد أيام قليلة، ابتدأ غرباء يزورون المنزل ويتلقون مواعيد مع أحدهم الآخر في غرفة الطعام، ولقد قيل أخيرًا أنه سوف يباع.

لقد ذهب كل شيء، لم يبق أحد من الغزاة، فقد كان المنزل حطامًا تهرب منه الفيران.

أصبحت "بولي" مربية بول، وحيدة في هذا المنزل الخالي.. وكانت قد حضرت لتعني بمستر دمبي: وفي الليل بينما كانت جالسة في غرفة مديرة المنزل سمعت طرقًا على باب الصالة .

لقد كانت مس توكس" وقد أحمرت عينا "مس توكس".

قالت مس توكس: "أوه بولي، لقد تلقيت الرسالة التي تركتها لي، ألا

يوجد هنا أحد سواك؟"

فقالت بولى: "آه ! ولا شخص واحد".

همست مس توكس : "هل رأيتية؟"

أجابت بولى بارك الله، لا، لقد أخبروني أنه لا يغادر غرفته أبدًا".

فتساءلت مس توكس: "هل هو مريض؟"

– أجابت بولى : "كلا يا سيدتى، بقدر ما أعرف، ما عدا عقله، لا بد أن عقله قد أصابه سوء، يا للسيد المسكين!"

– إن عطف "مس توكس" شيء لا تكاد تعبر عنه بالكلام، لقد عادت مبكرًا في الصباح ثم أصبح وظيفتها أن تجوز كميات صغيرة من طعام لذيذ خاص ليحمل إلى هذه الغرف في الصباح التالي، وكانت تمضي الجزء الأعظم من وقتها في المنزل المهدم، تدفعها رغبة وحيدة في أن تكون مخلصة لهدف أعجابها الذي هوى، ولم يكن يعرف ذلك أحد في العالم سوى امرأة فقيرة بسيطة. وكان الضابط يعرف هذا، وكاد يموت من الضحك ويقول لنفسه باستمرار: "سيداتى، سادتى، إن المرأة بلهاء بالميلاد".

أما الرجل المحطم فكيف كان يمضي الساعات وحيدًا؟

"دعه يتذكر هنا في تلك الأجرة في السنوات المقبلة!".

لقد تذكر فعلًا، وما أشد ثقل ذلك على العقل الآن، أكثر من أي شيء آخر.

لقد فكر فيها كما كانت في تلك الليلة عندما أتى إلى المنزل هو

وعروسه. لقد فكر فيها كما كانت في كل ما حدث في المنزل المهجور. لقد كانت هي الوحيدة التي تنظر إليه دائمًا بنظرة رقيقة، لم تتغير نحوه.. ولم يتغير نحوها.. لقد فقدها.

في كبريائه.. فقد كان لا يزال متكبرًا.. ترك الناس تهجره في حرية، لم يكن لديه أية فكرة عن أي صحبة في بؤسه، سوى المرأة التي طردها. كان يعلم دائمًا أنها أحبته الآن أحسن من من أي وقت آخر. وهكذا جلس يفكر في وحدته من ساعة إلى أخرى.

ومع ذلك.. كان متكبرًا في تحطمه.. لدرجة أنه إذا استطاع أن يسمع صوتها في الغرفة المجاورة، ما كان يذهب إليها.

خرج من وحدته أثناء سكون الليل ومعه شمعة في يده، وذهب في هدوء إلى الطابق العلوي، أحنى رأسه وبكي وهو صاعد.

وقف ينظر إلى أعلى وبدا له منظر قد يكون من الصغر، ولكنه منظر طفلة تحمل طفلًا وتغنى له أثناء صعودها.

وتجول خلال الحجرات التي كانت منذ زمن قصير مضى جميلة، ولكنها الآن خالية من الأثاث ومقبضة ومتغيرة. كانت توجد هنا ذكريات كثيرة جدًا، ولكنه نحاها جانبًا ولم يتذكر في بؤس وشوق وضعف سوى طفليه.

وعندما أشرقت الشمس، أقفل على نفسه غرفته مرة ثانية. ثم نهض وسار في أنحاء الغرفة، ومر إلى الغرفة التالية، ثم رجع ومعه شيء أخذه من فوق المنضدة وأخفاه في صدره. وابتدأ ينظر إلى أسفل الباب ويفكر.

لقد كان يفكر أنه إذا تدفق الدم في هذا الاتجاه، وانساب إلى الصالة فسوف يستغرق ذلك وقتًا طويلًا ليذهب بعيدًا هكذا. وسوف يتحرك سرًا وببط. لدرجة أن الجريح عندما يكتشف أمره بهذه الوسيلة سوف يكون أما ميتًا أو في النزع الأخير..(كان يفكر في الانتحار).

نهض فجأة بوجه مخيف وأمسك بما كان في صدره، ثم توقف بصرخة عالية فيها حب وسعادة.. إذ رأى انعكاس صورته في المرآة وابنته عند أقدامه.

"بابا... عزيزي بابا.. سامحني.. لقد عدت لا أسألك المغفرة وأنا راكعة على ركبتي، لن أكون سعيدة مرة ثانية دون عفوك!.

سار في عدم ثبات إلى مقعده، شعر بها وهي تسحب ذراعه حول رقبتها، وشعر بها وهي تضع ذراعها حول رقبته، وشعر بقبلاتها على وجهه، وشعر.. أوه.. ما أقوى عاطفتها نحوه!.. لقد شعر بكل هذا.

– "بابا، حبيبى، لقد أصبحت أمًا، ولى طفل سوف ينادى "ولتر" بالاسم الذي أناديك به. وعندما ولد، وعندما علمت مدى حبي له، أدركت ما فعلته برحيلي عنك، سامحني، يا والدي".

وعندما تعلقت قريبًا منه، قبلها ورفع عينيه إلى أعلى وقال: "يا الهى، سامحني.. فإني أحتاج إلى هذا العطف كثيرًا جدًا".

وبهذا أحنى رأسه مرة ثانية وكان يبكي فوقها ويربت عليها ولم يكن يسمع صوتًا في كل أنحاء المنزل مدة طويلة، فظلا متعانقين في أشعة الشمس الفخمة التي تدفقت مع فلورنس.

وارتدي ملابسه للخروج بناء على طلب ابنته، وكان يمشي في خطوة ضعيفة وينظر إلى الخلف مرتجفًا، إلى الحجرة التي حبس نفسه فيها مدة طويلة، خرج معها إلى عربة تنتظرهما عند الباب.

وقد تهللت "مس توكس" و "بولي" اللتين راقبتا كل هذا من المكان الذي اختبأتا فيه.

قالت مس توكس: "وهكذا دمبي وولده" في الحقيقة ابنة، يا ولي بعد كل هذا".

الفصل الثالث والثلاثون

شيء أكثر عن الزواج

بعد أن رأي الكابتن فلورنس" وطفلها وتحدث طويلًا مع "ولتر" خرج للنزهة. وعند ناصية وقف فجأة ساكنًا وأصبح لا يتكلم عندما رأى القادم نحوه.

أمام جماعة من الناس كانت تلك المرأة العنيدة "مسز ماك ستنجر" التى كانت تحمل ساعة كبيرة مثبتة في صدرها، عرفها الكابتن في الحال بأنها من ممتلكات "بنسبي"، وكان يسير بجانبها هذا البحار الحكيم وقد ارتسمت على وجهه شقاء ومتاعب سجين

يؤخذ إلى بلدة أجنبية، وخلفهما بدا صغار عائلة "ماك ستنجر" وخلفهم سديدتان ذو مظهر مخيف وعنيد، يقودان بينهما سيد قصير يرتدي قبعة عالية، وفي الخلف ظهر ابن "بنسبى" يحمل مظلات، ولقد سار الجميع في نظام. وكان من الواضح أنه موكب تضحية وأن الشهية هو "بنسبي".

وكان أول تفكير الكابتن هو أن يهرب، ولكن الجماعة عرفته.

قالت مسز ماك ستنجر: "حسنا يا كابتن كتل! هذا في الواقع اجتماع! أني لا أحمل أي شعور سيىء نحوك، يا "كابتن كتل"، آمل أن أتزوج بروح أخرى".

ولم ينظر "بنسبي" التعس إلى اليمين أو إلى اليسار، ولا إلى عروسه ولا إلى أصدقائه، ولكن مباشرة أمامه.

قالت مسز ماك ستنجر: "إذا كنت تريد يا "كابتن كتل" أن ترى صديقك لأخر مرة كرجل أعزب، فسوف نكون سعداء لو حضرت معنا إلى الكنيسة".

ثم استطردت مسز مالك سيتنجر قائلة: "توجد سيدة هنا ستكون سعيدة لحمايتك يا كابتن كتل".

وفي الحال أمسكت السيدة به قائلة: أنه ليس هناك وقت لأضاعته... وأعطت الأوامر في صوت قوي لمتابعة السير.

ان اهتمام الكابتن بأمر صديقه لم يختلط في بادىء الأمر باهتمامه بنفسه، فقد خشي أن يزوجوه بالقوة، ولذلك كان لفترة من الزمن غير واع لمحادثة زميلته، ولكن عندما قل خوفه علم أنها أرملة مستر "بوكم".

وطول هذا الوقت لم يسع الكابتن إلا ملاحظة أن "مسز بوكم" ثبتت عينيها على العريس خشية أن يهرب، كما كانت السيدة الأخرى وكذلك زوجها الرجل القصير ذا القبعة الطويلة يقومان بالحراسة.

حاول الكابتن محاولات عديدة أن يتحدث إلى "بنسبي" ولكنه فشل دائمًا، وهكذا وصلوا إلى الكنيسة.

وهنا وجد الكابتن الفرصة ليهمس بصوت أجش في أذن العريس:

– "هل تفعل ذلك بإرادتك الحرة، يا جاك بنسبى؟"

فأجاب مستر بنسبي: "كلا"

فتساءل الكابتن: "لماذا تفعل ذلك أذن، يا بني؟".

وظل "بنسبي ينظر أمامه بوجه لا يتحرك، ولم يجب".

قال الكابتن: "لماذا لا تهرب؟"

فأجاب الرجل الغير سعيد: "وما الفائدة؟ لقد قبضت على مرة ثانية".

فأجاب الكابتن: "حاول.. لا تحزن.. انها فرصتك الان، أهرب يا جاك بنسبي!"

ولم يهرب بنسبى حينئذ، ولن يهرب للأبد، فقد تزوجته مسز مالك ستنجر في الحال بعد ذلك.

ثم عاد الموكب مرة أخرى إلى "برج بلاس" حيث كانت وليمة الزفاف جاهزة، ولقد صحبهم الكابتن إلى باب البيت، ولكنه لم يكن مستريح البال لسوك "مسزبوكم" التي أصبح لها من وقت الفراغ ما يسمح لها بأن تظهر اهتمامًا به، لذلك ترك المنزل والمسجون.

الفصل الرابع والثلاثون.

الندم

تساءلت "سوزان" التي وصلت في التو مع: "مستر توتس"، الذي أصبح زوجها الآن: "هل والدك مريضًا جدًا، يا عزيزتى مس فلوى؟".

فقالت فلورنس وهي تلمس ملابسها في دهشة: "إنه مريض– جدًا، ولكن "سوزان" عزيزتي ما هذا؟ ملابسك القديمة يا عزيزتي؟ قبعتك القديمة، وتجعدات شعرك وكل شيء؟"

فقال مستر توتس: "سوف أشرح له يا عزيزتي مس دمبي، لقد كانت تقول دائمًا أنه عندما تعود إلى الدار، فسوف تحضر إليك في نفس الملابس التي اعتادت أن تخدمك بها. عزيزتى مس دمبي، سوف تكون وصيفتك مرة ثانية، ومربيتك، وكل شيء.

لقد كانت "فلورنس" في حاجة إلى المساعدة، وكانت حاجة والدها إلى المساعدة أشد، فقد كان الموت يقف عند الوسادة.

وكانت "فلورنس" دائمًا معه، كان يعرفها عمومًا، ولو أن في أفكاره، كان يخلط غالبًا الحالات التي يتحدث فيها.. وهكذا يتحدث إليها أحيانًا كما لو كان ابنه قد مات حديثًا.. فيخفض وجهه ويبكي ويمد يده النحيفة. وفي بعض الأحيان كان يصرخ: "أين فلورنس؟ لقد افترقنا مدة طويلة حتى أصبحت لا أعرفها".

ويظل هكذا مدة أيام وأسابيع، وأخيرًا يرقد في فراشه ويتحدث. بصوت منخفض جدًا ويصبح هادئًا. ويبدأ في إظهار أنه يفكر في تعب "فلورنس" ويهمس إليها دائمًا: "إذهبى وتنزهي في الهواء النقي، إذهبي إلى زوجك الطيب".

وذات مساء كان نائمًا بينما كانت "فلورنس" جالسة بجانب النافذة عندما دخل "ولتر".

قال ولتر: "هناك شخص يا عزيزتي في الطابق الأسفل يرغب في التحدث إليك".

فذهبت، فلورنس "إلى الطابق الأسفل مع زوجها، وفي غرفة الاستقبال الصغيرة جلس رجل، فتذكرت "فلورنس" ابن العم "فينكس" فاضطربت.

قال ولتر: "لاشيء حدث، ياحبيبتي، ليس أكثر من أن تذهبى مع هذا السيد ومعي إلى لندن ونزور مكانًا ما".

قالت: "إذا كان والدي لايزال نائمًا، فسوف أذهب في الحال".

وكانت المسافة التي قطعتها حوالي ثماني أميال، ثم وقفت العربة أخيرًا أمام منزل في "شارع بروك" حيث احتفل بزواج والدها غير السعيد. نزل ابن العم "فينكس" وقدم يده "لفلورنس".

تساءلت فلورنس: "ألن تأت، يا ولتر؟"

– كلا، سوف أظل هنا، لاتخافي، لاشيء يدعوك إلى الخوف ياعزيزتي "فلورنس".

صعدت فلورنس السلالم المظلمة وهي ترتجف ثم وقفت أمام باب غرفة الاستقبال.

وكانت تجلس بجانب النافذة إلى منضدة سيدة وقد استقرت رأسها فوق يدها.

قالت: "يا الهى! ماهذا؟"

لقد ارتسم على الوجه العاطفة والكبرياء، ولكنه كان وجه "اديث" وكان لايزال جميلًا مهيب المنظر.

انفجرت "فلورنس" باكية، وقالت من أعماق قلبها: "ماما، ماما، لماذا تقابلنا هكذا! لقد أتيت من جانب فراش والدي المريض لن نفترق من الآن ولن نفترق أكثر من ذلك، إذا كنت تودين أن أسأله العفو، فسوف أفعل يا أمي، إنني متأكدة أنه سيمنحك العفو إذا طلبت منه".

فلم تجب "اديث" بكلمة.

صاحت فلورنس وهى تركع على ركبتيها بجانبها: "صلى لله، يا أمى ليغفر لك لأنك تركتى بابا!"

فوضعت "أديث" ذراعيها حول رقبة "فلورنس" وصاحت:

"فلورنس! ياملاكي الجميل! قبل أن يتغلب على عنادى مرة ثانية ويجعلني لا أستطيع الكلام، صدقيني، وحياتي، إنني بريئة".

وكانت تبكي بمرارة:

قالت فلورنس: "ماما، لقد فقد بابا ثروته، وأنه على حافة الموت، وقد

لا يشفي الآن، هل توجد رسالة منك أبلغها له؟"

فقالت اديث: "ألم تخبريني أنك عزيزة عليه؟"

فقالت فلورنس في صوت مرتجف: "نعم!".

- "اخبره إنني آسفة لأني عرفته"

فتساءلت فلورنس: "هل أستطيع أن أقول له أنك حزنت عندما سمعت أنه يقاسي من الألم؟"

فأجابت: "كلا، إلا إذا كانت قد علمته أن ابنته عزيزة جدًا عليه سوف لايحزن على ذلك بنفسه في أي يوم، إلا إذا كان قد تعلم هذا الدرس "يا فلورنس".

وبدا كأن غضبها قد تلاشي، وحلت الدموع في عينيها السوداء.

ثم قالت: "عندما يحب فلورنس أكثر، سوف يكرهني أقل، سأحاول حينئذ أن أعفو عن نصيبه من التوبيخ، فليحاول أن يعفو عني. والآن إلى اللقاء يا حياتي!".

وضمتها بين ذراعيها وتدفق كل حبها النسوى ورقتها في الحال.

قالت: "عندما تتركيني في هذه الحجرة المظلمة، فكري أنك قد تركتيني في القبر. تذكرى فقط ماذا كنت ذات مرة وأنني أحببتك".

وغادرتها فلورنس، ولم تر وجهها بعد ذلك، ولكن ذكرى حبها وقبلاتها في قلبها.

الفصل الخامس والثلاثون

الخاتمة

أصبح "مستر دمبي" رجلًا أبيض شعره، ويحمل وجهه آثار عميقة من المقاساة وهموم الحياة، ولكنها آثار عاصفة قد مرت إلى الأبد وحل محلها مساء صافي ولم تعد مشاريعه الطموحية تقلقه، وأن فخره فقط كان بابنته وزوجها.

في أيام الريف المشرقة، وعلى شاطىء البحر. توجد غالبًا سيدة شابة ورجل أبيض شعره، ومعهما أو بالقرب منهما طفلين: ولد وبنت.

يسير الرجل ذا الشعر الأبيض مع الولد الصغير، ويعنى به، ويراقبة، كما لو كان هدف حياته. وفي بعض الأحيان يجلس الطفل بجانبه وينظر إلى وجهه ويسأله أسئلة فيتناول الرجل يده الصغيرة بين يديه ويمسك بها وينسى أن يجيب وحينئذ يقول الطفل:

– "ماذا، ياجدي! هل أشبه عمي الصغير المسكين مرة ثانية!"

– "أجل، يا بول. كان ضعيفًا ولكنك قويًا جدًا".

وكلما سارا معًا، سارت قصة حبهما وتبعتهما. ولكن لا أحد سوى فلورنس يعرف مدى حب الرجل ذا الشعر الأبيض للبنت الصغيرة. ولكن القصة لم تنتشر فقد كان يحتفظ بحبه لها في قلبه، وما كان يحتمل أن يراها تجلس منفردة. وكان يذهب في هدوء لينظر إليها أثناء نومها. وكان يسره

أن تأتي وتوقظه في الصباح. وكان أكثر غرامًا ومحبة لها عندما لا يكون هناك أحد بالقرب، ولذلك كانت تقول الطفلة في بعض الأحيان:

– جدي العزيز، لماذا تبكي عندما تقبلني؟

فكان يجيب فقط: "فلورنس الصغيرة! فلورنس الصغيرة! ويربت على خصلات شعرها التي تظلل عينيها".

الفهرس